جان رونسان

امين المكتبة في مصلحة الآثار للمندوبية العامة

AUC Library
DS 94.5 R64X 1943 c.1
RONSAN, JEAN/TILKA AATHAARUNAA: JUHUUD F
3 8534 00909289 5
main

تلك آثارنا

جهود فرنسا الأثرية في الشرق

دار المكشوف ، بيروت

06-B1697

FROM THE
LIBRARY OF
THE
AMERICAN UNIVERSITY
IN
CAIRO

من مكتبة
الجامعة الامريكية بالقاهرة

تلك آثارنا

طبع من هذا الكتاب ٥٠٠٠ نسخة
على ورق « ودفري »

الطبعة الاولى ، ١٩٤٣

جميع الحقوق محفوظة

DS
94.5
R64x
1943

جان رُوسان

امين المكتبة في مصلحة الآثار للمندوبية العامة

تلك آثارنا

ويليها

جُهود فرنسا الأثرية في الشرق

دار المكشوف ، بيروت

شارل كليرمون غانو (١٨٤٦ – ١٩٢٣)

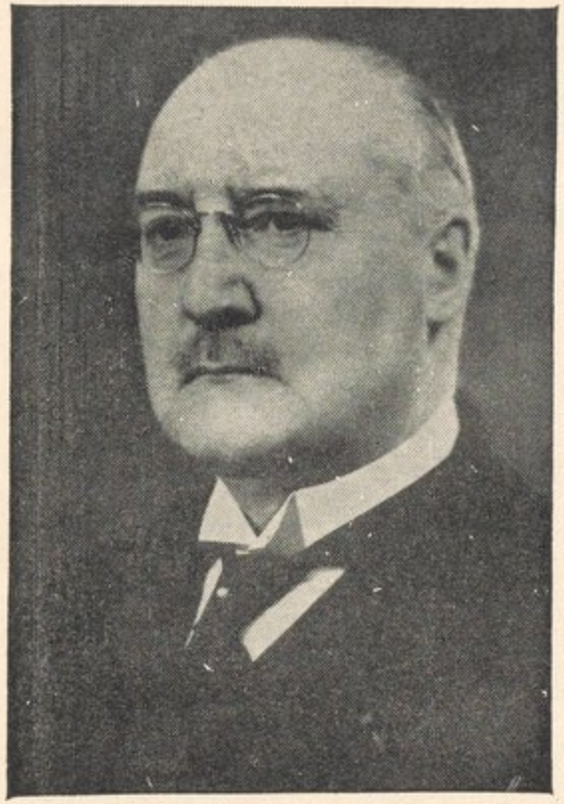

رينه دوسو امين اكاديمية الخطوط والفنون الجميلة

مقـــدمة

يجد القارىء في هذه النبذة التي وضعها باللغـــة الفرنسية العالم الشاب الاستاذ « جان رونسان » ، امين المكتبة في مصلحة الآثار المندوبية العامة ، ونقلهـــا الاستاذ الياس ابو شبكه الى اللسان العربي ، فصولا قيّمة عن الجهود الطيبة التي بذلتها فرنسا في صيانة الآثار بسوريا ولبنان ، وفي نفض الغبار عن الكنوز المخبوءة في ترابنا المسنّ . ويقف فيها على اسرار تاريخنا الحافل بأمجاد العصور وما انطوى عليه هـــذا التاريخ من روائع الفن والتراث الثقافي في مختلف الحضارات وفي ظل فتوحاتٍ ما استطاعت بتبديلها وجوه العمران تبديلَ الروح في سوريا ولبنان .

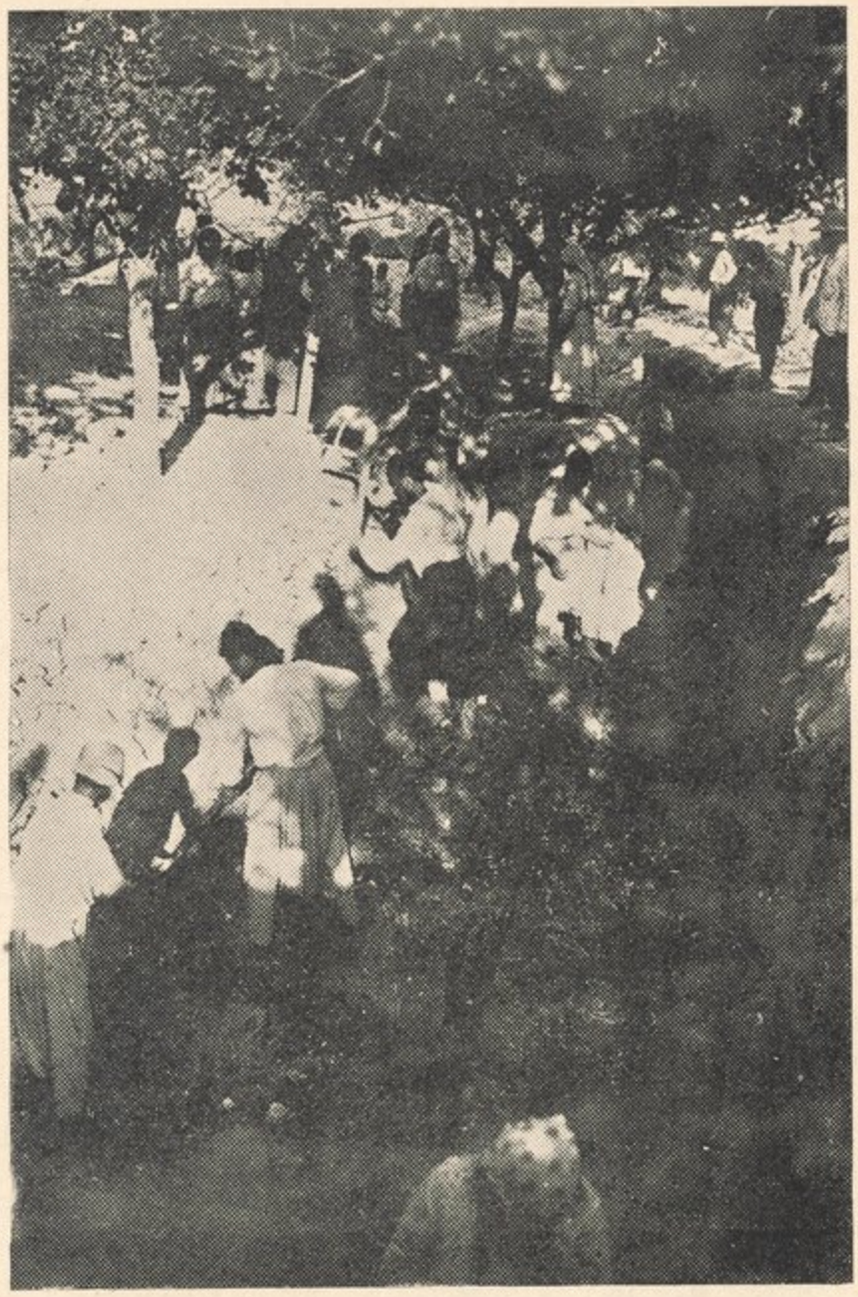

مشهد لعمليات التنقيب في صيدا سنة ١٩٢٠ ، وهي اولى اعمال
الحفريات في الشرق تحت نظام الانتداب

العناية بالآثار

قد لا يكون ثمة بلد اسهل تناولاً للابحاث الاثرية من سوريا ولبنان . فتاريخٌ يمتد في مثل هذا المدى البعيد في الماضي ، وتنوعٌ عظيم كهذا التنوع في الموارد الثقافية ، واحداثٌ عجيبة تذكر كلاً منا بقصة جميلة قرأها او سمعها في حداثته ، تجعل من سوريا ولبنان بلدين ممتازين في نظر كل من تستهويه المعارف والذكريات التاريخية . فاذا اعملنا الفكر في كل ما تعيد سوريا ولبنان الى مخيلة الامم الاوربية وشعوب حوض المتوسط دون غيرها ، رأينا في فجر التاريخ شعب « الحفارين المهرة » والبحارة الجسورين ، والتجار الحاذقين الذين يصفهم لنا هوميروس والعهد القديم معاً ، وشعبَ عتاليا وايزابل ، ثم الملكيات الفاتنة في الشرق المستظل بظل الحضارة اليونانية ، والزحف الظافر للجحافل الرومانية .

وفي الوقت نفسه (نشر الدين المسيحي بطريقة بطيئة ولكن اكيدة) ، هذا الدين الذي اتخذ اسمه في الارض السورية ، في

انطاكية . واخيراً ، حين افتتح دين جديد وحضارة جديدة هذه الارض ، مَن الذي لم يستغرق في الاحلام وهو يقرأ قصة قديمة تطري مآثر الصليبيين وشهامة خصومهم ؟ واننا لنقف عند هذا العهد اذ الاسماء والافعال لا تلبث فيما بعد ان تتعدد في التاريخ السوري ، وبوسع اي كان ان يتذكرها بسهولة .

ولكن منذ ان حل المؤرخ العالم محل المؤرخ الغاوي ، باحثاً عن كل ما يمكنه ان يستنير به ، اصبحت سوريا ولبنان الارض المختارة للمنقبين والاثريين . ولم تنتظر فرنسا الانتداب لتساهم في نفض الغبار عن ماضي سوريا ولبنان . منذ منتصف القرن الثامن عشر كان الاب برتامي منصرفاً الى حل رموز الكتابات التدمرية والفينيقية . وفي القرن التاسع عشر نخص بالذكر الرحالين العلماء دەسولسي وغيرن ووادنغتن وملكيور دەفوغي ، والبعثة الفينيقية المشهورة التي ترأسها ارنست رينان وافتتحت عهد الاعمال الاثرية على وجهها الصحيح . وبعد العام ١٨٧٠ اقترنت حركة التنقيب عن الآثار السورية باسم كليرمون غانو الذي كان في بادىء الامر ترجماناً في القنصلية الفرنسية بالقدس ، وباسم المعهد التعليمي للدروس المقدسة الذي انشىء في القرن العشرين ، وباسماء اختصاصيين اولي شهرة عالمية كرينه دوسو المعروف بخبرته في الآثار السامية بسوريا ، والاب شابو في الكتابات الآرامية ، وغوستاف شلومبرجه في تاريخ

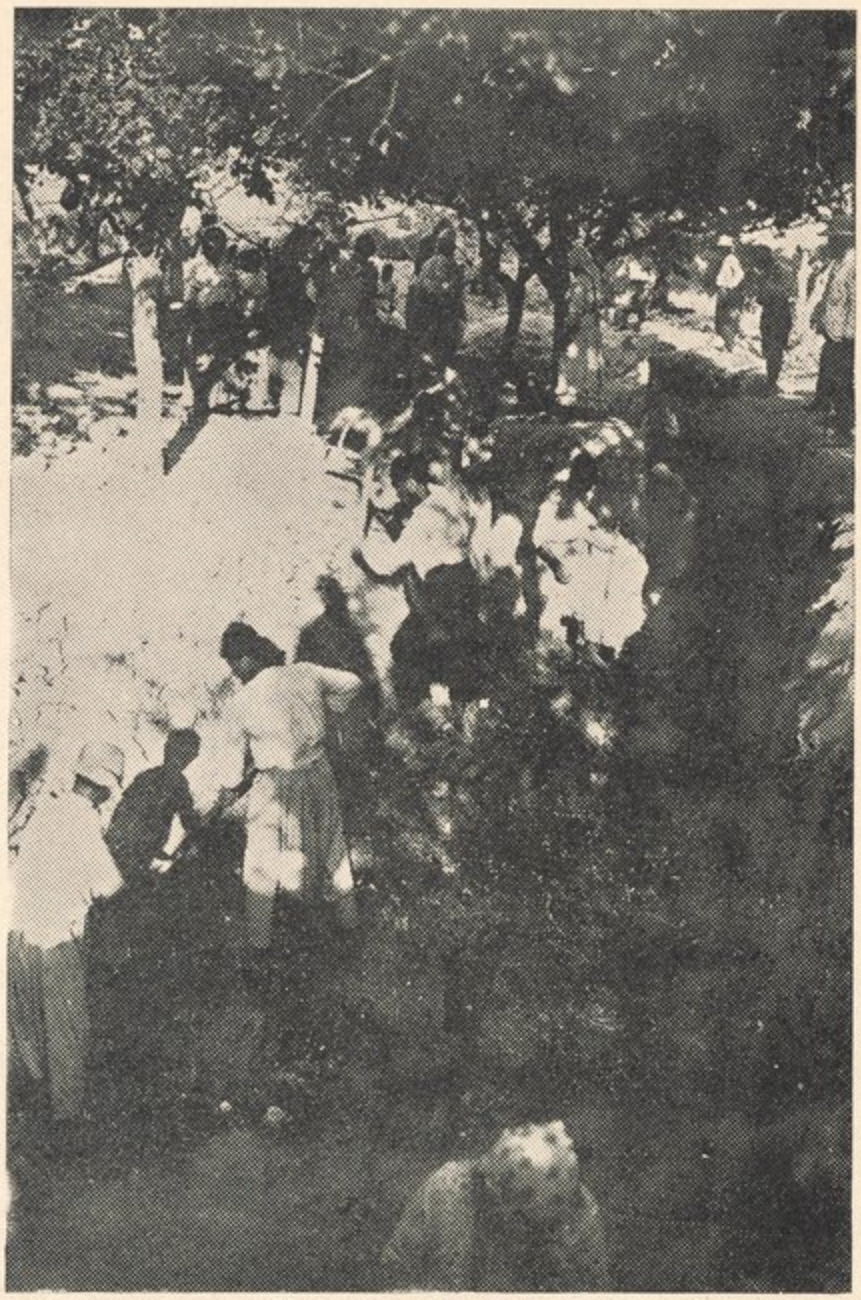

مشهد لعمليات التنقيب في صيدا سنة ١٩٢٠ ، وهي اولى اعمال
الحفريات في الشرق تحت نظام الانتداب

حقبة الحملات الصليبية .

وفي ظل السلطنة العثمانية كانت سوريا شديدة الافتقار الى منظمة اثرية قادرة على القيام بصيانة آثارها العديدة . وكان في العام ١٨٨٩ قد سن قانون للآثار لم ينفذ سوى القسم الطفيف منه ، ذلك ان السلطة كانت مفتقرة الى الوسائل اللازمة لمنع التعديات او معاقبة مرتكبيها . هذا الى ان للسياسة التي كان يسلكها مديرو المصلحة العثمانية للآثار ، وحمدي بك منهم بوجه خاص ، لم تكن تختلف عن سياسة محافظي المتاحف الاوربية . فقد كانوا يذهبون الى ان الغاية من الكنوز الاثرية هي تزيين متحف اسطنبول بقطع ثمينة ، ويهملون كل ما لا يستطيع المساهمة في الوصول الى هذه الغاية ، فكان ناهبو القبور والمنقبون السريون يعملون عملهم بسهولة ويبيعون للخارج كل ما يعثرون عليه . وهكذا كانت سوريا تُسلب اجمل كنوزها الفنية والتاريخية لفائدة تركيا او اوربا . وبقي احتراف استثمار الآثار القديمة متواصلا بدون معارضة حتى اقبلت جيوش الحلفاء الى سوريا فاهتمت السلطات في الحال بصيانة هذه الآثار . فعين من الطرف الفرنسي كل من الملازم الاول دو منيل دو بويسون والملازم الثاني بروسه والكبيتان فيل ، ومن الطرف الانكليزي كل من الكبيتان انجلبك والكبيتان كرسويل والملازم الاول مكي مفتشين للمصالح الاثرية . والحقت غرفتا التجارة في ليون

ومرسيليا السيد مونته ، العالم بالآثار المصرية ، بلجنة التحقيق الاقتصادي التي يديرها السيد هوفلن . ولما عين الجنرال غورو قائداً اعلى لجيش الشرق ومفوضاً سامياً لسوريا وكليكيا عمد ، حتى قبل مغادرته باريس ، الى رسم خطة لمصلحة الآثار ، ولتنظيم هذه الخطة اختار ج . شامونار الذي اختبره في غليبولي عام ١٩١٥ حين عهد اليه باعمال التنقيب في مدفن اليونت الاغريقي على بعد بضع مئات من الامتار من خط النار .

سوى ان الاهتمام كان متحولا الى الكنوز الاثرية في سوريا ولبنان ، فبوضع عصبة الامم هذين البلدين تحت الانتداب الفرنسي خصصت المادة الرابعة عشرة من صك الانتداب بالتوصيات المتعلقة بالشؤون الاثرية . وهذه المادة هي واحدة من اثنتين هما اطول مواد هذا الصك وتبلغ وحدها خُمسَ هذا الاخير تقريباً ، وقد تضمنت الخطوط الكبرى من قانون الآثار الذي وضع فيما بعد لسوريا ولبنان . والمادة الرابعة عشرة هذه مماثلة للمادة الاحدى والعشرين من صك الانتداب الفلسطيني .

في تلك الاثناء كانت مصلحة الآثار تواصل العمل في بيروت . فبعد ج . شامونار الذي كان في التسعة الاشهر الاولى من العام ١٩٢٠ قد غرس الاوتاد الاولى بمعاونة المفتشين السيدين بروسه وبروست ، ورسم خطة الاشغال ولكنه لم يتمكن بداعي الظروف من الوصول الى نتائج كبيرة (مع ان الدكتور

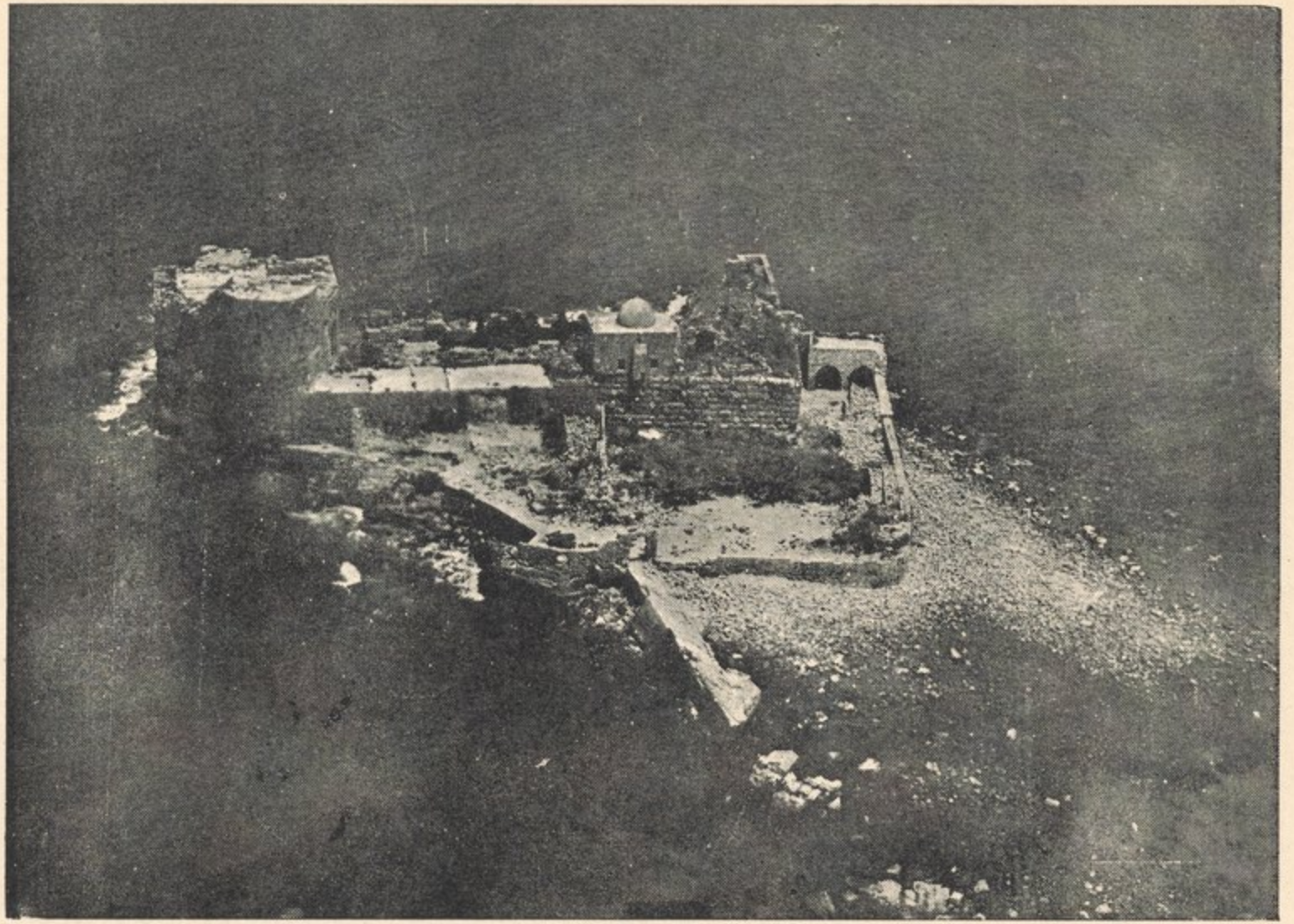

قلعة البحر في صيدا . وتبذل مصلحة الآثار الان جهوداً جمة لاصلاحها

كونتنو كان قد استأنف اعمال التنقيب التي باشرها عام ١٩١٤ في صيدا) ، بعد شامونار تولى السيد فيرولو في شهر تشرين الثاني ١٩٢٠ ادارة مصلحة الآثار حتى العام ١٩٢٩ ، ثم خلفه السيد سيريغ وبقي يمارس مهامه حتى العام ١٩٤١ ، وفي هذا التاريخ تولى السيد دونان بدوره هذا المنصب .

ولا ينفسح المجال هنا لتعداد الافضال التي اتاها موظفو مصلحة الآثار . ولكننا لا نجد بداً من التنويه باثنين منهم ماتا في سبيل الواجب ، هما داروس ، ممثل مصلحة الآثار في حلب الذي قتل عام ١٩٢٩ خلال قيامه باعباء مهمته ، وبروست ، مفتش مصلحة الآثار في لواء الاسكندرونة الذي قتل في حادث سيارة خلال قيامه باعباء مهمته في العام ١٩٣٦ .

وفي اثناء ذلك تبدلت حالة الآثار الادارية جملة مرار ، ففي العام ١٩١٩ كانت تسمى مصلحة الآثار والفنون الجميلة للمفوضية العليا . وفي العام ١٩٢٠ اصبحت مستقلة وصدر مرسوم رقم ٨٢٦ بتاريخ ١٧ آذار ١٩٢١ يحدد صلاحياتها . وفي العام ١٩٢١ الحقت بمصلحة الآثار بعثة اثرية دائمة مكلفة بوجه خاص اجراء ابحاث علمية فرنسية تحت مراقبة اكاديمية الخطوط والفنون الجميلة وادارتها . وهذه البعثة مؤلفة من مدير دائم — وهو في الوقت نفسه مدير مصلحة الآثار — ومن بعثات موقتة .

فنشاط مصلحة الآثار كان اذاً محدداً بالمادة الرابعة عشرة من

صك الانتداب وبالمرسوم رقم ٨٢٦ بتاريخ ١٧ آذار ١٩٢١ ، وهذا النشاط يمكن ان ينتظم تحت ثلاثة عناوين :

١ ـ مراقبة الآثار التي اكتشفت وحمايتها .

٢ ـ ترميم الآثار والتفتيش عنها .

٣ ـ درس الآثار .

وسننظر تباعاً في كل من هذه الاعمال موجهين الى الثاني منها ، وهو ابعدها اثراً ، اهتماماً خاصاً . سوى ان للاثنين الآخرين اهميتها الكبيرة على ما فيهما من الصرامة والاتضاع .

مراقبة الآثار وحمايتها

كانت مصلحة الآثار في مجموعها بحاجة الى سن قانون يحدد كل ما يختص بالابنية الاثرية . والى ان يسن هذا القانون بقي القانون العثماني الموضوع في العام ١٨٨٩ والمعدل في العام ١٩٠٦ مرعي الاجراء . وفي ٢٦ من آذار ١٩٢٦ صدر القانون الجديد (قرار رقم ٢٠٧) وهو يتناول اهم المسائل القضائية التي تطرحها على بساط البحث صيانة الابنية القديمة والتفتيش عنها . فالآثار مثلاً كانت وفقاً للقانون العثماني ملك الدولة دون سواها . ثم صدرت قرارات جديدة تحددت بموجبها تجارة الآثار وتصديرها واعمال التنقيب عنها . ولما انكشف الاستعمال عن مصاعب في

المسرح الروماني في بصرى اسكي شام

تطبيق محتويات هـذه القرارات اعد تعديل بشكل القرار رقم ١٦٦ ل. ر. بتاريخ ٧ تشرين الثاني ١٩٣٣ وكان ما يزال مرعي الاجراء ، وقد نص هذا القرار الجديد على ان الحق في ملكية الآثار يعود في بعض الاحوال الى الافراد ، وان صيانة الابنية مؤمنة بطريقة البيان والتصنيف القانونية . وينظم القرار الجديد ايضاً تجارة الآثار وتصديرها واعمال التنقيب .

فصيانة الآثار المنقولة اصبحت مؤمنة بطريقة تصنيفها اذا كانت على جانب كبير من الاهمية . وقد وضعت المراقبة على المتاجرة بها ومنع تصدير الاشياء المصنفة ، اما فيما يختص بالاشياء الاثرية الاخرى فمصلحة الآثار تعطي اجازة تصدير اذا تمنعت الدولة عن شرائها .

وتأمنت صيانة الآثار الثابتة بطريقة البيان والتصنيف . فكل بناية مسجلة في البيان يجب ان تبقى على حالها . وقد وضعت مصلحة الآثار « بياناً عاماً عن الابنية التاريخية » . وهذا العمل الواسع النطاق يستغرق وقتاً طويلا . سوى ان اهم ابنية دمشق وعددها ١٠١ وحلب وعددها ٩٠ قد سجلت منذ ١٩٣٣ بعد ضبط مواقعها في وثايق المساحة . بيد ان القانون لا يترك مصلحة الآثار عزلاء حيال اتلاف الابنية التي لم تسجل بعد في البيان .

وليستطاع تصنيف اهم الابنية او اكثرها تعرضاً للخطر ،

اي انه يستطاع صيانتها بأن يفرض عليها حقوق ارتفاق خاصة يمكن توسيعها الى ما يلي الابنية من الاراضي وهي تفرض واجبات على الدولة . ويجري التصنيف بمرسوم يصدره رئيس الجمهورية بموجب اقتراح من وزارة المعارف العامة التي تستند الى طلب من مصلحة الآثار . فبهذه الطريقة صنفت في سوريا تكيّتان بدمشق وقلعة حلب وابنية تدمر والرقة والضمير ، وفي لبنان ثلاثة جوامع ببيروت ومدينة طرابلس القديمة وعدد من الابنية فيها وابنية بعلبك ودير القلعة وعنجر وبزيزه وانفه وقصر بيت الدين وقصر البحر بصيدا .

واعمال الحراسة هذه التي عرضناها بسرعة في الاسطر السابقة تمثل قسماً كبيراً من نشاط مصلحة الآثار . سوى انها لا تعد شيئاً في نظر الجمهور اذا قيست بالمساعي المشهورة التي بذلت في الاعمال الاثرية .

ترميم الآثار والتفتيش عنها

وهذه الاعمال التي تعد جزءاً من مجموع النشاط يمكن اعطاؤها العنوان التالي : العناية بالآثار وترميمها والتفتيش عنها ، وسنكتفي هنا بعرض قائمة عن الاعمال التي انجزت ، اما النتائج العامة لهذه الاعمال فسنذكرها في نهاية بياننا هذا عارضين امثلة

في معبد باخوس ، بعلبك • ويرى في القسم الامامي من الصورة حطام عمود من اعمدة الهيكل

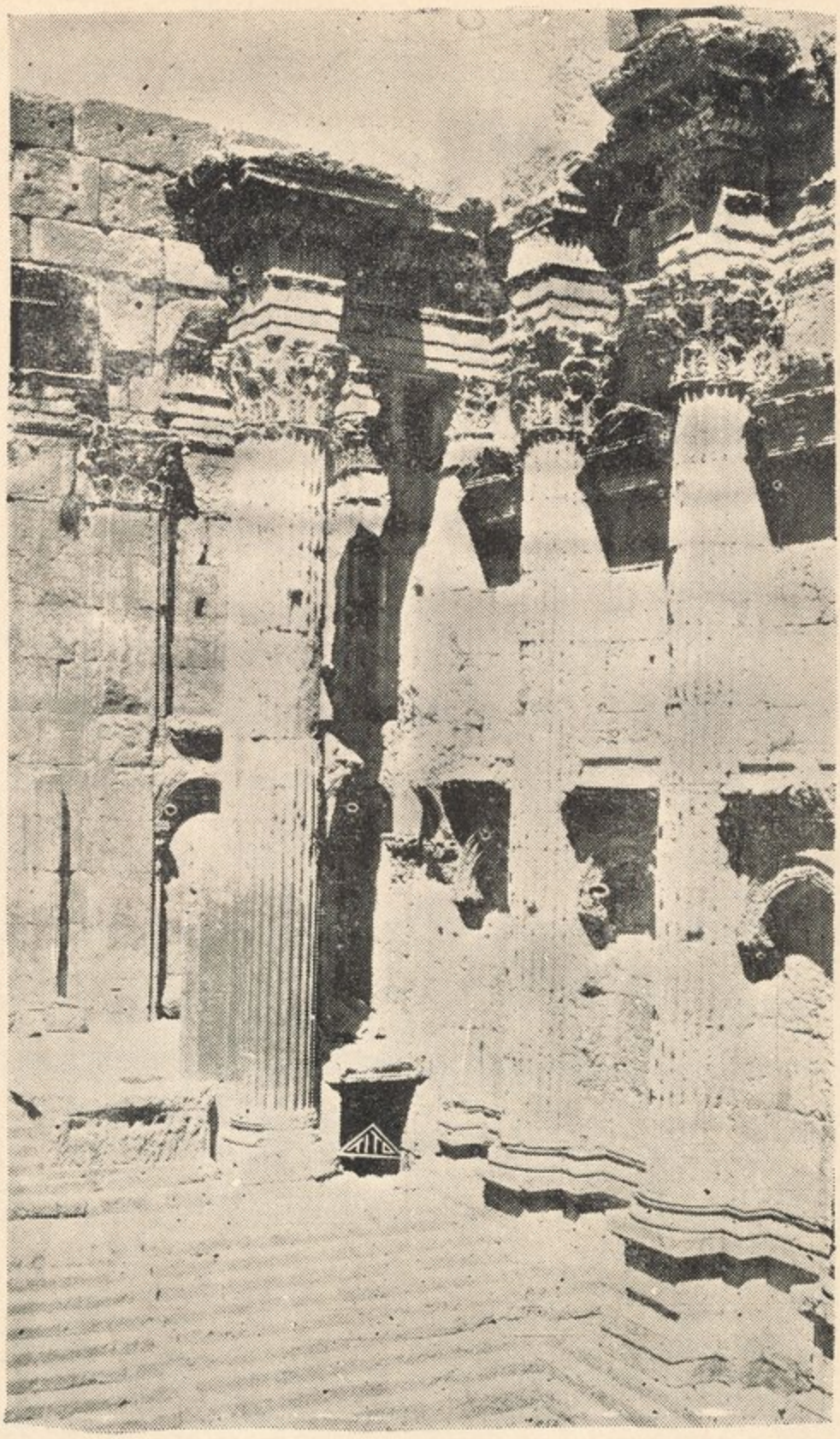

في معبد باخوس ، بعلبك : العمود نفسه بعد ان اعادته مصلحة الاثار الى مكانه

خاصة عن كل من العهود بحسب تواريخها . فينجلي لنا بذلك على احسن وجه مغزى هذه الاعمال التي تسفر في مجموعها عن إحياء صحيح للماضي .

ومعلوم ان مصلحة الآثار تحملت وحدها تبعة العناية بالابنية التاريخية وتدعيمها . ولكن دولتي سوريا ولبنان ، وقد ادركتا اهمية الحيلولة دون اتلاف التراث الوطني ، اعطتا الاعتمادات اللازمة لهذه الاعمال ، وبنوع خاص للاعمال التي اقتضتها خرائب بعلبك وتدمر . وقد حصّلتا حتى الآن جزءاً كبيراً من ارباح هذا الجهد بتهافت السيّاح على الشرق . ولم تقف مصلحة الآثار عند حد العناية بالابنية التاريخية وتدعيمها بل تجاوزت ذلك الى الترميم . وهي لم تسلك في ذلك طريق الخطأ فتحرّف التاريخ كما يعزى الى المرحوم فيوله لو دوك . ولكن اذا شاهدت عموداً سليماً مطروحاً على قدم قاعدته فترى من الحق ان تعيده الى مكانه الاول . فبروح مشبع بالتؤدة العلمية قامت مصلحة الآثار بعملها ولم يتصدّ لجهودها ايٌّ من اشد العلماء صلابة وتعنتاً . بل كان الامر على نقيض ذلك تماماً .

واليكم قائمة بأهم ما تولت مصلحة الآثار تدعيمه او ترميمه :

قلاع الصليبيين وهي قلعة الحصن وصهيون والمرقب

والشقيف . وترميم ابراج المماليك على الساحل اللبناني . وكنيسة مار فوقا في اميون . والجامع الكبير (سابقاً كنيسة مار يوحنا) في بيروت . والقصر والكنائس الصليبية في جبيل . والابنية الاسلامية والصليبية في طرابلس . وهيكلان رومانيان في بزيزه وفي عين حرشا . وكنيسة صليبية في انفه . وخان العبدة من عهد المماليك . والقناة الرومانية على نهر ابراهيم . وقلعة البحر في صيدا . وسراي بيت الدين . وسراي دير القمر . وخرائب بعلبك . والعمود الروماني في يعت . ومدفن في الهرمل . والقوس ذات الاركان الاربعة في اللاذقية . والابنية الصليبية في طرطوس . وقلعة صليبية في صافيتا . وابنية بيزنطية في السويدا . وهيكل روماني في عتيل . ومسرح روماني في شهبا . وابنية رومانية في قنوات . وهياكل رومانية في الصنمين والمشنّف وسليم والضمير . وباب روماني في بصرى اسكي شام . وخرائب تدمر . وبرج بيزنطي في قصر الحير الغربي . والكنائس البيزنطية في مار سمعان وفي قلب لوزه . وقبر بيزنطي في الباره .

وسنتبع هذه القائمة بقائمة اخرى تحتوي اعمال التدعيم والترميم التي قام بها السيد ايكوشار للابنية الاسلامية في سوريا من العام ١٩٣٥ الى ١٩٤١ بادارة مصلحة الآثار . ويجد القارىء بياناً مفصلا عن هذه الاعمال في الكراس الذي وضعه السيد

منظر عام لبناية المتحف الوطني في بيروت

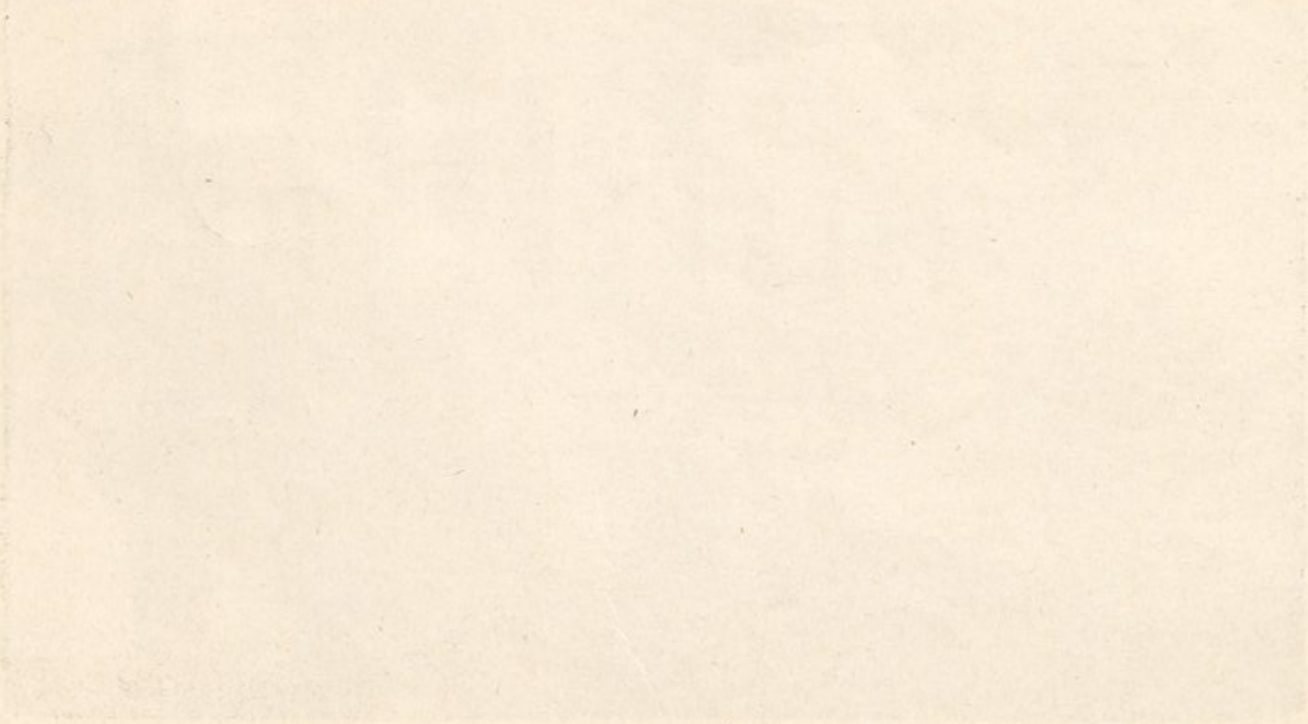

ايكوشار تحت عنوان « ترميم الابنيـة الاسلامية في سوريا » وذلك في العام ١٩٤٣ ببيروت :

في دمشق الجامع الاموي وتكية السلطان سليمان وتكيـة السلطان سليم وخان اسعد باشا ومارستان القيمري وجامع تنكيز ومـدفن الشيخ حسن وجامع الشيخ محي الدين والقبـة الحمراء والمدرسة الظـاهرية وجامع درويش باشا وجامع الصابونية والولي الشيباني وتربة البـدري ومارستان نور الدين ومدفن الدحـداح والمدرسة الاقناعية وجامع الشامية ... الخ .

في درعا الجامع العمري وفي بصرى اسكي شام الجـامع العمري ايضاً .

في حماه دار العظم .

في حلب القلعة ومارستان ارغون وجامع الغربان والمدرسـة المقدّمية وباب انطاكيـة وجامع الحلاّوية وخان الوزير وجامع اوغول بك وجامع المهمندار .

وفي الرقة باب بغداد ومئذنتا ابي هريرة وقلعة جعبر والبنايات الاسلامية في قلعة صهيون .

اما التنقيب عن الآثار فذو اهميـة اكبر . فهو يفسح السبيل الى نفض غبـار القرون عن طرق الحياة في الازمنـة الغـابرة والى اكتشاف مدن ودور وهيـاكل وشوارع واشياء منزلية كثيراً ما تكون سليمة ، فتزداد بذلك معرفتنـا بالماضي

وتتاح لنا العودة الى مصادر الحضارات . واذا راجعنا القسم الثاني من هذا الكتيب تمكناً من تكوين فكرة لنا عن النتائج العلمية التي اسفرت عنها اعمال التنقيب بسوريا في ظل الانتداب الفرنسي . اما في القسم الاول فلا نجد الا قائمة بأهم هذه الاعمال .

ينص صك الانتداب الذي تماثل مادته المختصة بالحفريات الاثرية المادة المدرجة في صك الانتداب الفلسطيني على انه يجب ان يكون للمنقبين من جميع دول جامعة الامم حقوق متساوية في الاستثمار العلمي لاماكن التنقيب في الشرق . ولا يستثنى من هذه القائمة الا الاشخاص الذين لا تتوافر فيهم الضمانات العلمية الكافية . والواقع ان الطريقة الحديثة في علم الآثار توجب اتخاذ احتياطات عديدة واساليب على جانب كبير من الدقة والمهارة . فالغواة والمنقبون الجهلاء — ولا نتكلم على المنقبين السريين — اتلفوا الى الابد بعض مواقع لو انها نقبت تنقيباً علمياً لجاءت بمعلومات على جانب عظيم من الاهمية .

لذلك عهد الى مصلحة الآثار بمهمة النظر في مؤهلات الذين يطلبون الحصول على امتيازات للتنقيب ومراقبة اعمالهم ، وتقسيم حصص المنتجات ، كما عهد اليها بالاتصال بالمؤسسات العلمية والعلماء الاجانب وبلفت انظارهم الى هذا الموقع او ذاك من المناطق التي يفيد التنقيب فيها . فمن الحق اذاً ان يعزى اليها شطر كبير من الفضل في الاعمال الاثرية التي تعطي القوائم

التالية فكرة عن اهميتها . اما الاشياء التي يُعثر عليها في اثناء التنقيب فتخص الدولة وهي تتخلى عن قسم منها للمنقب بصفة تعويض . وهكذا رأينا المتاحف الوطنية في سوريا ولبنان تتمتع بثروة من الكنوز لا يحصى ثمنها .

جدول الحفريات والتحريات الاثرية التي اتت بنتائج علمية عن العصر السابق للاسكندر الكبير : جبيل (بيبلوس) وانطلياس وجوايا ومجدلونا وصيدا وتحريات شتى عن العصر السابق للتاريخ في لبنان . عمريت (ماراتوس) وقلعة الروس ورأس الشمراء . شيخ سعد . سد بحيرة حمص وتل نبي مند (قادش) وحماة وخان شيخون وتل سودان وقطنه (المشرفة) . قلعة حلب ونيرب وعشرة وعطشانة وتل ارفد (ارباد) وارسلان طاش وتل احمر (تيل بارسيب) وتل حميدي . تل ريحانية وتل جديدة وتل جتل هويك . شاكر بازار وتل براق . مسكنه وتل حريري (ماري) . تل حلف .

جدول الحفريات والتحريات الاثرية التي اتت بنتائج علمية عن العصور الاغريقية والرومانية والبيزنطية : بيروت والجناح وخلده وصور وام العواميد وبترزة وشيخ زناد وبعلبك وزحله وسرعين وسعدنايل .

بصرى وشهبا وقنوات وتحريات شتى في جبل الدروز وحوران واللجاء والحرة والصفاء .

تدمر (بالميرا) وخربة الضانه وقبر عقيـد وحمص وتحريات شتى في منطقة تدمر ومنطقة شمالي شرقي حماه .

حلب والسفيرة وقنسرين (خلسيس آد بلوم) وقلعة المضيق (افاميا) وعشرة ومار سمعان الاكبر وتحريات شتى في منطقة « المدن الميتـة » . وفي قضاء حارم . منبج (هيرابوليس) والصالحية (دورا) وباغوز وتحريات شتى في الجزيرة والشامية . الاسكندرية وانطاكية ويقطو (دفنـا) ومار سمعان الاصغر ومار توما وسلوقيا .

عمريت (ماراتوس) .

جدول الحفريات والتحريات الاثرية التي انت بنتائج علمية عن العصر الاسلامي (بما فيها الابنية الصليبية) : حفريات وتحريات شتى في كثير من قلاع الصليبيين .

جبيل وددده وبلمند وصيدا وعنجر .

الخرائب الاموية في جبل سايس .

دمشق .

قصر الحير الغربي وقصر الحير الشرقي .

حلب وخان طومان ومسكنة .

طرطوس .

منظر عام لبناية المتحف الوطني في دمشق

درس الآثار

بعد ترميم الآثار او اكتشافها تبقى مسألة درسها واستخلاص كل ما يصدر عنها لاحياء الماضي . وقد اخذت مصلحة الآثار على عاتقها المساهمة في هذه المهمة ، بكشفها الغبار عن امجاد الارض السورية واللبنانية موطّدة بذلك تلك المنزلة العليا التي ما برحت تتمتع بها فرنسا في الميدان العلمي والتي تكوّن قسماً هاماً من نفوذها الثقافي في العالم .

وقد عمدت مصلحة الآثار التي تعد بين موظفيها علماء ذوي مقدرة لا نزاع فيها الى جمع كل ادوات الدرس التي يحتاج اليها المنقبون ، فتألفت لاجل ذلك مكتبة تحتوي على نحو من خمسة آلاف مجلد أضيفت اليها مجموعة هامة من رسوم الكتابات القديمة ومجموعة اهم من الصفائح الفوطوغرافية . وازدادت اخيراً بصور جوية ذات فائدة اثرية سخت بها القوات الجوية لفرنسا الحرة على مصلحة الآثار . اما الاشياء التي عثر عليها خلال الاعمال التنقيبية او الاكتشافات الاتفاقية فهي ملك مختلف المتاحف الوطنية .

واليكم نبذة مقتضبة عن تاريخ هذه المتاحف . فقد تألف متحف بيروت في بادىء الامر من مجموعة اثرية جمعها القومندان ريمون في عام ١٩١٩ ووضعت في احدى قاعات بناية

الديا كونيس الالمانية (المعهد البروتستانتي للبنات اليوم) وما عتم الامر ان أضيفت الى هـذه النواة الاولى بضعة من الاشياء الاثرية بينهـا الاشياء التي اكتشفها الدكتور كونتنو في صيدا وبعض هبات ، وذلك حين انشئت مصلحة الآثار فرفعت هذا المستودع الى مصف متحف يستقبـل جميـع التحف الاثرية الصادرة عن الاراضي اللبنانية . وقد بقي السيد فيرولو ، مدير مصلحة الآثار ، والكونت فيليب ده طرازي ، مـدير دار الكتب الوطنية ، يؤمنان ادارة هذا المتحف الوطني اللبناني الى العام ١٩٢٨ . ومنذ ذلك العهد تولى الامير موريس شهاب هذه المهمة . وبعد قليـل قررت الحكومة اللبنانيـة انشاء متحف جمعت قسماً من نفقاته لجنة وطنية تألفت لهذه الغاية وتولى بناءه المهندس انطوان نحاس . وهذه البناية الجميلة التي انتهت في العام ١٩٣٦ حسنها المهندس البلجيكي لاكوست والمهندسان الفرنسيان كوبيل ولوفري اللذان انتدبتهما مصلحة الآثار . وفي ٢٧ من نوار ١٩٤٢ دشنت رسمياً في حفلة شائقة اشتركت فيها الصفوة المستنيرة من رجال الشرق .

اما المتحف الوطـني السوري الذي خصص في بادىء الامر للفن العربي فقـد أقيم في المدرسة العادليـة بدمشق مع المجمع العلمي العربي ، وكان المتحف فرعاً منه . وفي العام ١٩٢٣ حين صار متحفاً وطنيـاً ، تولى ادارته الامير جعفر

عبد القادر ، تلميذ معهد اللوفر ، بكثير من المقدرة والخبرة . واذ ضاق البناء كثيراً ، لا سيما حين تقرر ان يشتمل المتحف على الآثار التالية للاسكندر والمكتشفة في الارض السورية ، تقرر في العام ١٩٣٦ انشاء بناية جديدة بموجب خطط المهندس الفرنسي السيد ايكوشار وبمعاونة الاختصاصي الاميركاني السيد بيرسن . وعهد الى هذا الاخير ايضاً بمهمة شاقة وهي ترميم كنيس دورا اوربوس . وفي بادىء الامر جمعت الآثار التي اكتشفت في سوريا الشمالية في معهد بحلب بعناية السيد داروس ، ممثل مصلحة الآثار في حلب . واخذت المجموعات الاثرية تزداد فتخلت لها المندوبية العامة عن بناية ناعورة التي كانت مقراً للمفوض السامي . وعين مديراً لها السيد بلوى ده روترو ، مفتش آثار سوريا الشمالية ، خلفاً للسيد داروس . وفي الوقت نفسه تألفت جمعية اثرية في كبرى مدن شمالي سوريا لترويج العلوم الاثرية وترقيتها . وتقرر ان يشتمل متحف حلب على جميع الآثار السابقة لعهد الاسكندر والمعثور عليها في سوريا ، وان يشتمل متحف دمشق على الآثار التالية لهذا العهد . وفي العام ١٩٤١ خلف السيد لوفري السيد بلوى ده روترو في مفتشية الآثار بسوريا الشمالية والشرقية وادارة متحف حلب .

وجمعت آثار محافظة اللاذقية في سراي طرطوس أولاً ثم في سراي اللاذقية . وتجري الاعمال بنشاط لتحويل قاعات السراي

المودعة فيها الآثار الى متحف صغير . وهذه المجموعة تشتمل خاصة على الآثار التي اكتشفت خلال حفريات السيد موريس دونان في عمريت والسيدين شيفر وشانه في رأس شمرا . وفي احواش بالسويدا وضعت الآثار التي جمعها الكبيتان كاربييه في جبل الدروز . وقد بعثر معظمها خلال الثورة الدرزية ، ولكن بعد ان تمكن السيد دونان ، لحسن الحظ ، من درسها وتصويرها . وصور هذه الآثار التي فقدت الى الابد محفوظة في المؤلف الذي وضعه السيد دونان عن « متحف السويدا » . وباشراف الجنرال كليمان غرانكور والاب ماسكل مدير مصلحة الآثار النشيط في جبل الدروز ، جرى ترميم المتحف وهو يزداد كل سنة بما يصدر عن الحفريات والاكتشافات الاتفاقية ، او بالهبات . وكان قد انشيء متحف في انطاكية جمعت فيه الآثار التي عثر عليها في لواء الاسكندرونة القديم . وهذا المتحف تولى ادارته السيد بروست ثم السيد مرلات ، وكلاهما ملحق بمصلحة الآثار .

من هذه النبذة القصيرة يتبين لنا كيف عنيت دول الشرق بالمؤسسات العلمية في ظل الانتداب الفرنسي ، لا سيما اذا عدنا بالذاكرة الى العهد العثماني حين لم يكن في هذه البلاد سوى مستودع واحد من هذا النوع في بعلبك وحين كانت جميع الكنوز الاثرية التي تخرج من التراب السوري تذهب الى متحف القسطنطينية .

قلعة المرقب ، وهي من اجمل الآثار التي تركها الصليبيون • وتقوم مصلحة الآثار باعمال جبارة
لترميم هذه التحفة التاريخية

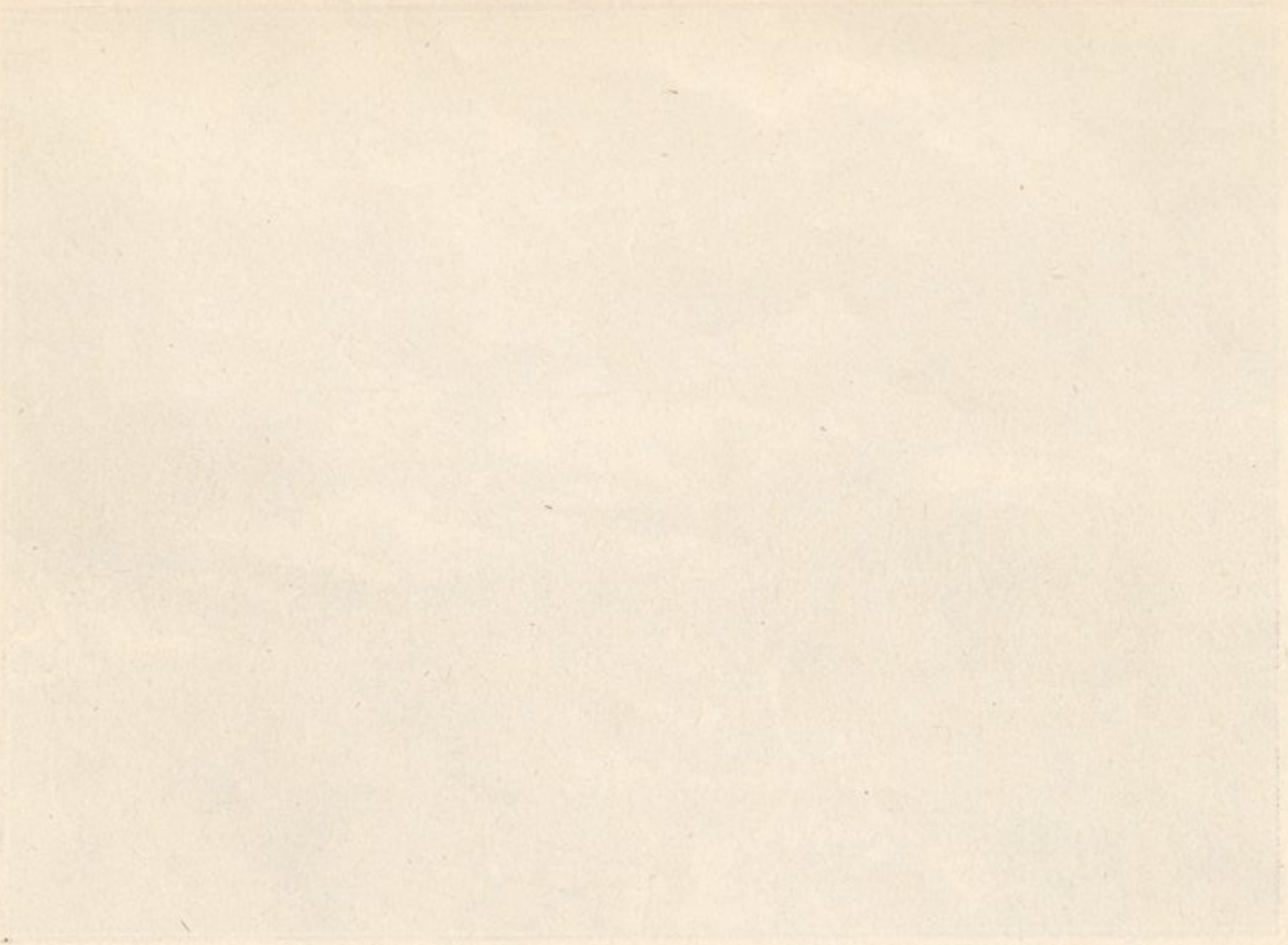

وكان على مصلحة الآثار ان تطلع الجمهور على نتائج الاعمال التي اشرفت عليها فتدارکت هذا الامر بامدادها بالمال مجلة « سيريا » (وهي نشرة ذات قوام علمي عال ومظهر مادي ممتاز صدر الجزء الاول منها عام ١٩١٩ وهي الآن في جزئها العشرين) وبنشرها « المكتبة الاثرية التاريخية » التي يعد كل جزء منها بمثابة مؤلف لاختصاصي . وقد صدر من هذه المجموعة ثلاثة وثلاثون جزءاً حتى العام ١٩٣٩ ، وهي تحتوي ابحاثاً في الحفريات والاكتشافات والتحرّيات التي جرت بسوريا في ظل الانتداب الفرنسي كحفريات بيبلوس وقاديش وارسلان طاش وتل برسيب ودورا اوربوس ورأس شمرا . وفي الجزء الثامن والعشرين نشر الاب بوادبار نتيجة ابحاثه الاثرية بطرق التصوير الجوي او البحري الجديدة عن « اثر روما في صحراء سوريا » ، وفي الجزء التاسع عشر نشر مقالاً عن « صور او المرفأ العظيم المضمحل » . ونشر الاب جالابر والاب موترد مجملاً عن الكتابات اليونانية واللاتينية في سوريا كما نشر السيد دونان بحثه عن « متحف السويدا » . وثمة فصول عن « النخيل والاشجار المقدسة » و « الانظمة السلوقية » و « سوريا في عهد المماليك » و « ابنية الصليبيين في مملكة اورشليم » و « قلعة الحصن » وغيرها .

الآثار في عهد فرنسا المحاربة

من واجبنا ان ننوّه في خاتمة هذا القسم بالعمل الهام الذي قامت به فرنسا المحاربة في هذا الميدان وفي سواه خلال سنتين كانتا — بالرغم من مختلف العراقيل والمصاعب التي تثيرها حالة الحرب — في عداد اخصب السنوات التي عرفها تاريخ مصلحة الآثار .

فلسنتين خلتا كانت الانقلابات السياسية والتعبئة التي تكررت مرتين لعدد كبير من رجال مصلحة الآثار قد عرقلت بعض الشيء اعمال هذه المصلحة . على ان قدوم القوات المتحالفة الذي اعاد النظام والطمأنينة الى البلاد فسح السبيل الى بعث قوة جديدة في نشاطها ، فتجدد القسم الاكبر من موظفيها وادركت المندوبية العامة لفرنسا المحاربة اهمية العمل العلمي والانساني القائم تحت اشرافها ، ففتحت اعتمادات هامة لحركة النشاط الاثري بالرغم من تحرج الظروف . ولأمرٍ لا يبدو غريباً الا في ظاهره حلت مسائل كثيرة كانت في زمن السلم تبدو بعيدة الحل .

ولنعد الى مواضيعنا . ففيما يختص بحماية الآثار المكتشفة وادارتها لم يدخل اي تعديل على القانون المرعي الاجراء . وقد استؤنف عمل تسجيل الابنية الاثرية وتصنيفها وسترفع قريباً الى

منظر جوي لمدينة دمشق ويرى في الوسط الجامع الاموي الاثر الاسلامي العظيم الذي تخصه مصلحة الاثار باهتمام كبير

الحكومات مشاريع مراسيم تؤمن حماية معظم البقاع الاثرية . هذا الى انه قد انشئت مصلحة حراسة في الاماكن الكبيرة الاهمية اذ ان القوانين لم تكن تضمن في الغالب الكثير الا حماية وهمية للاماكن التي تتجمع فيها الابنية الاثرية وليس لها طرق سهلة ولا مخافر المدرك فيها . وكانت اعمال التخريب تتناول على الخصوص منطقة « المدن الميتة » الثمينة في غربي حلب ، هذه المنطقة التي حملت اليها الاحوال السياسية والاقتصادية سيلا جديداً من السكان راح يستخدم الابنية الحجرية الجميلة مساكن له . وليس هذا التصرف بمستنكر كل الاستنكار ، ولكن اولئك السكان كثيراً ما كانوا يعمدون الى هدم تلك الابنية ليبنوا منها مساكن جديدة اكثر ملاءمة لاذواقهم . فكان من الصعب صرف النظر عن الاستمرار في تخريب كنز من اجمل الكنوز التاريخية بسوريا ، فتقرر الاسراع في وضع بيان علمي صريح عن هذه الآثار لتعيين ما تجب المحافظة عليه منها مهما كلف الامر ، وما هو اقل اهمية او لا اهمية له البتة ، وفي الوقت نفسه لوضع تقويم نهائي بهذه الابنية التاريخية .

ولاجل تحقيق هذا البرنامج لم يكن بد من استخدام رسامين يتولون عملية بيان الآثار وحراس يقومون بدوريات تفتيشية . وقد ادرك الجنرال كاترو خطورة الحالة التي بينتها له مصلحة الآثار والضرورة التي تقضي على فرنسا المحاربة ان

تقوم بواجبات الجمهورية الفرنسية تجاه بقايا الماضي في هـذه البلاد فمنح الاعتمادات المالية اللازمة ، ومـا عتم الامر ان انتقل المشروع الى حيز العمل . ونظام الحراسة الدوّارة هذا ما لبث ان طبق في حوران ، وهي من المناطق التي يكثر فيهـا تجمع الآثار ، بعد ان اختبرت فاعليته في منطقة حلب .وليحق لنا ان نأمل اذا لم تعترض ذلك ضرورات ما بعد الحرب ، انه سيجيء يوم تشمل فيـه شبكة دوريات الحراسة هذه جميـع اراضي سوريا .

وقد بطؤت حركة التنقيب عن الآثار كرهاً لان البعثات الاجنبية التي كانت تعمل في سوريا لم تتمكن من مواصلة اعمالها . اما في لبنان فقد استمرت الحكومة اللبنانية في ارصاد الاعتمادات اللازمة للحفريات التي يديرهـا السيد دونان . ففيما اعمال التنقيب الاخيرة تختتم في بقعة بيبلوس كانت هذه الاعمال اول معول في رقعة صيدا . وقد اتسمت هذه الاعمال الاخيرة بطابع تمهيدي على الخصوص فرفعت الطبقات ذات الاهمية الاثرية الضئيلة وسيباشر قريباً رفع الطبقة الاغريقية التي تغطي الحاضرة الفينيقية الفتانة التي يرجى منها حصاد جزيل . هذا الى أن ثمة منقبين آخرين اجروا حفريات في بقاع سابقة للازمنة التاريخية كثيراً ما اتت بفوائد جمة . واليكم لائحة باعمال التنقيب التي تمت في عهد فرنسا المحاربة :

تاووس حيرام ملك بيبلوس ، وقد نقش عليه مع رسوم الخدم الذين يقدمون الطعام الى الميت ، اقدم مخطوط فينيقي

تحفة منقوشة على العاج وجدت في راس شمرا وهي تمثل آلهة الخصب يحيط بها تيسان وحشيان

البقاع السابقة للازمنة التاريخية في مناطق طرابلس وجبل الدروز ودمشق ، جبيل ، صيدا .

اما اعمال الترميم والتدعيم فقد تواصلت على اوسع مدى منها في الماضي وبمساعدة مالية كبرى من الدول والاوقاف الاسلامية . وقد تناولت هذه الاعمال جميع انواع الابنية على السواء .

حلب : جامع المهمندار ، مارستان ارغون ، دار الغزالة ، مدرسة الفردوس ، القلعة . جامع دير القمر وقلعة البحر في صيدا وقلعة الشقيف (بوفور) وابنية بعلبك . ابواب وحمامات رومانية في شهبا وهيكل روماني في الصنمين والجامع العمري في درعا والجامع العمري في بصرى . في دمشق الجامع الاموي ومدفن درويش باشا والمدرسة الشامية وترميم واجهة قصر الحير الغربي في متحف دمشق . ابنية تدمر .

ففي حلب جامع المهمندار ومارستان ارغون ودار الغزالة ومدرسة الفردوس والقلعة . مار سمعان الاكبر . القوس ذات الاركان الاربعة في اللاذقية وقلعتا المرقب وصهيون الصليبيتان .

ولنذكر هنا ان ممثلي جبل العلويين تخلوا بسخاء لفرنسا في شهر نوار ١٩٤٠ عن قصور الصليبيين في صهيون ومرقب . وقد تولت مصلحة الآثار ادارة هذه الابنية كما تتولى منذ سنوات ادارة قلعة الحصن ، وهي كذلك ملك الدولة الفرنسية .

ومجمل القول ان دراسة الآثار قد استؤنفت بالرغم من مختلف العراقيل الناشئة عن الحالة الدولية كتعذر الاتصال بعدد كبير من العلماء الذين بقوا منعزلين في الارض العدوة او الحصول على كتب هامة وارتفاع اسعار الطباعة ، وابتعاد عدد كبير من المنفيين بداعي حالة الحرب وغير ذلك . سوى ان مصلحة الآثار ساعدت بمختلف الوسائل — بمعاونة رجالها ، ومساعداتها المالية وتصحيح المسودات واعارة اصول الصور وغير ذلك من الوسائل العملية — على صدور مجلدات علمية كنشرة متحف بيروت التي تصدر بالاشتراك مع الحكومة اللبنانية ، ونشرة الدروس الشرقية لمعهد الدراسات العربية بدمشق ، وصدور مؤلفات علمية نفيسة كـ « حمامات دمشق » للسيد ايكوشار . وسيصدر قريباً القسم الاكبر من هذه المؤلفات وفي جملتها دراسة هامة عن اصول الاحرف الهجائية بمقتضى حفريات بيبلوس ، تحت عنوان « بيبليا غراماتا » بقلم مدير مصلحة الآثار ، ومؤلف هام للاب موترد والاب بوادبار عن « حدود خلسيس » . وسيكون هذا المؤلف جزءاً جديداً من مكتبة المصلحة المشار اليها . وقد أديت مساعدة غير مباشرة الى المنقبين بالترتيب القياسي لخزائن المصلحة التي اثرت على الخصوص مجموعة ممتازة من ستة آلاف مصفحة فوطوغرافية على وجه التقريب تكرمت بها القوات الجوية لفرنسا الحرة ، وهي تؤلف مستنداً فريداً عن البقاع

التاريخية او الاثرية او الريفية في سوريا ولبنان . ثم ان مصلحة الآثار عمدت الى تنظيم بعثة جديدة اوفدتها الى مصر العليا برئاسة السيد ج . كلير وتعهدت الحكومة اللبنانية بنفقاتها . وقد عهد الى هذه البعثة بوضع مخططات عن جميع الرسوم المصرية المتعلقة بفينيقيا . وهذا العمل الخطير الذي سيسفر عن اعطائنا مجموعة نسخ عن الرسوم الهامة التي نشرت حتى الآن بطريقة سيئة ويجهلها معظم الناس وسيوفر لنا مستنداً فريداً عن ماضي هذه البلاد ، ان هذا العمل الخطير لعلى طريق التحقيق . وقد وضع حتى الآن بيان عن رسوم دشاشة والاقصر والكرنك .

وخلاصة القول ان مصلحة الآثار في هاتين السنتين اللتين انصرمتا بدافع قوي من فرنسا المحاربة واصلت مهمتها واستطاعت القيام بنشاط يوازي ويفوق احياناً نشاطها في زمن السلم ، بالرغم من الجو المحموم الذي يكتنفنا ، وقعقعة السلاح في الخارج ، وعواقب الحرب التي لا تلائم كثيراً اعمال مصلحة الآثار .

اما وقد انتهينا من تبيان وجوه النشاط الذي قامت به مصلحة الآثار فسنحاول الآن بمراجعتنا الامور بحسب تواريخها ان نأتي بايجاز على نتائج هذا النشاط في معرفة الماضي وترميمه . وسيكون ذلك بمثابة صفحة من تاريخ بلدان الشرق كما تسمح لنا بتصوّرها الاعمال التي تواصلت في عهد الانتداب الفرنسي .

احياء الماضى

قبل اسكندر الاكبر

فجر التاريخ : بيبلوس . شرع المنقبون ، منذ البداية ، بنفض الغبار عن اقدم الحضارات التي شهدتها هذه البقاع ، عن واحدة من اقدم حضارات العالم هي الحضارة الفينيقية . فالوصف الذي تركته لها الشواهد اليونانية والعبرانية والخطوط الجديدة التي ادخلتها عليه النصوص المصرية منذ اكتشاف شامبوليون ، ما فتئت تحثّ الباحثين والمنقبين . سوى ان البعثة الفينيقية التي ترأسها رينان في العام ١٨٦٠ وان اتت بنتائج على جانب كبير من الاهمية الا انها لم تأت بمعلومات هامة عن العهد السابق لابتداء انتشار الحضارة اليونانية . ففي العام ١٩٢٠ كان السيد مونته ، العالم بالآثار المصرية ، قد ادرك منذ زمن عِظم اهمية بيبلوس من النصوص الهيروغليفية فباشر حفريات اوسع نطاقاً بكثير من الحفريات التي اجراها رينان في هذه

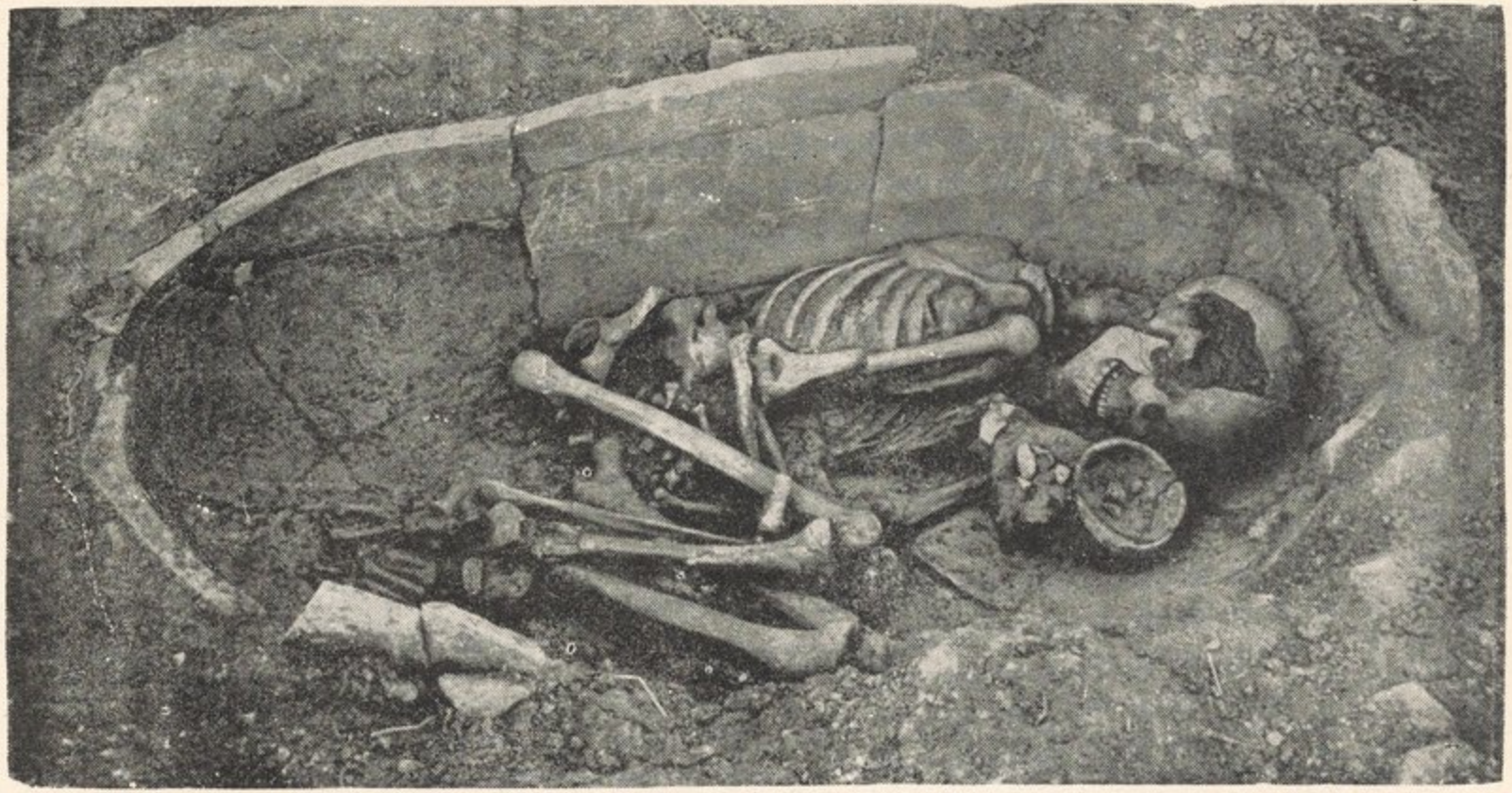

... الجثث موضوعة في قرب كبيرة بشكل بيضة ، واعضاؤها السفلى مطوية على الاجساد بوضعية الجنين

المدينة ، وهي في عداد اشهر المدن الفينيقية . وبعد اربع حملات كل منها ثلاثة اشهر ، انفقت عليها اموال اكاديمية الخطوط والآداب ، اخرج السيد مونته الى عالم النور عدداً كبيراً من الآثار ، واذا بمستهل الحضارة الفينيقية التي تجاري في قدمها حضارة مصر وبلاد الكلدانيين يرجع دفعة واحدة الفي سنة الى الوراء ، فقد اكتشف عدد كبير من قبور الملوك . ومنذ العام ١٩٢٦ اخذت الحكومة اللبنانية على عاتقها القيام بالحفريات وتولى ادارتها السيد دونان . وحتى العام ١٩٣٣ تناولت الاشغال نحواً من خُمس مساحة البقعة ووصلت الى الارض العذراء على عمق اثني عشر متراً . وبعد هذا التاريخ امتدت الاشغال الى سطح الاكروبول القديم الذي استملكت الحكومة اللبنانية ارضه . اما الآثار التي اكتشفت بادارة السيد دونان فهي الآن في متحف بيروت الجديد وبوسع اي كان ان يتأملها .

وهكذا يستطاع تمثّل تاريخ بيبلوس جلياً منذ مطلع الالف الرابع قبل المسيح بينا التاريخ الفينيقي كان قبلاً يكاد يبدأ في القرن الثاني عشر . فقد عرفنا من اكتشاف مدفن ان اول استيطان لبيبلوس بدأ في الالف الرابع قبل المسيح . وقد احتوى هذا المدفن مئات من الجثث موضوعة في قِرَب كبيرة بشكل بيضة واعضاؤها مطوية على الاجساد بوضعية الجنين .

وهؤلاء الاشخاص ينتسبون الى السكان الأول الذين قطنوا في جزر البحر الابيض المتوسط وسواحله وكانوا يستعملون ادوات صوّانية ولكنهم يعرفون النحاس وزراعة القمح والزيتون ولا يجهلون على الكثير الغالب تربية الدواجن .

وبعد هجر قصير لهذه البقعة وجدنا سكاناً يختلفون عمن سبقهم كل الاختلاف ، جاؤوا على الغالب من الشمال وقطنوا في بيبلوس . ولهؤلاء السكان حضارة ارقى بكثير من حضارة سلفائهم ، فهم يعرفون الشبه (البرونز) ومخرطة الخزاف ، ويحسنون لحماية انفسهم بناء سور متين من جدارين حجريين محشوّين بركّة من التراب الممهك سمكها اربعة امتار ايضاً . وقد وجد لهذا السور ابواب يصار الى احدها من سلّمين متقابلتين . وعثر على هيكلين هزيلين من الوجهة الهندسية ولكنهما يحتويان كنوزاً بينها هدايا من فراعنة اولى السلالات المصرية (من ٣٢٠٠ الى ٢٢٠٠) وبينهم اسماء عظماء بُناة الاهرام كخيوبس وخفرن وميكرينوس . وقد تبين لنا من النصوص المصرية ان بيبلوس بدأت منذ ذلك العهد حياتها كمدينة مقدسة في نظر سكان وادي النيل .

وفي آخر الالف الثالث حصلت اضطرابات وسادت الفوضى بيبلوس كما سادت مصر ، فدمرت المدينة وأحرق الهيكل . ولم تظهر لنا حضارة جديدة الا في نحو العام الالفين قبل المسيح .

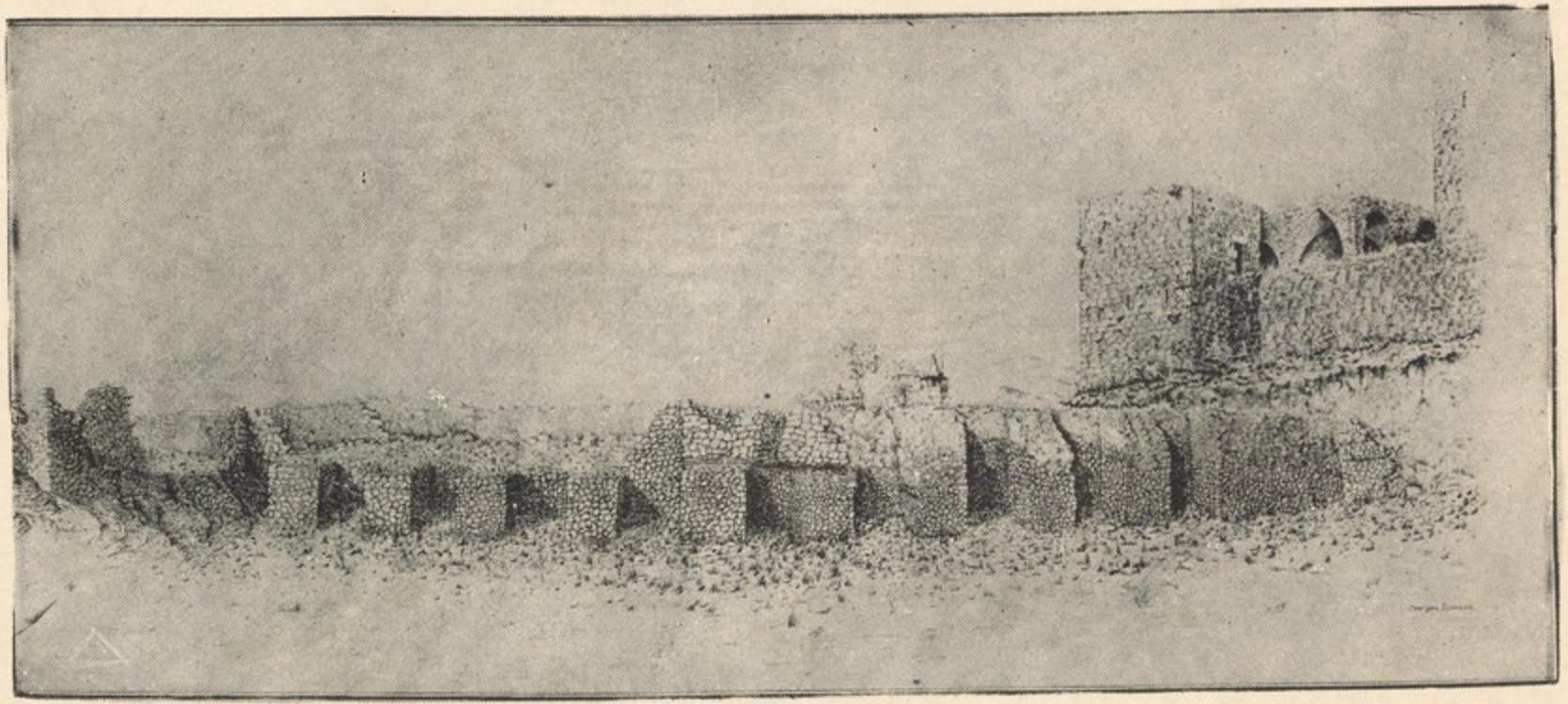

... ويحسنون لحماية انفسهم بناء سور متين من جدارين حجريين سمك كل منهما اربعة امتار محشويين بركة من التراب الممهك سمكها اربعة امتار ايضاً . وقد وجد لهذا السور ابواب يصار الى احدها من سلمين متقابلتين ...

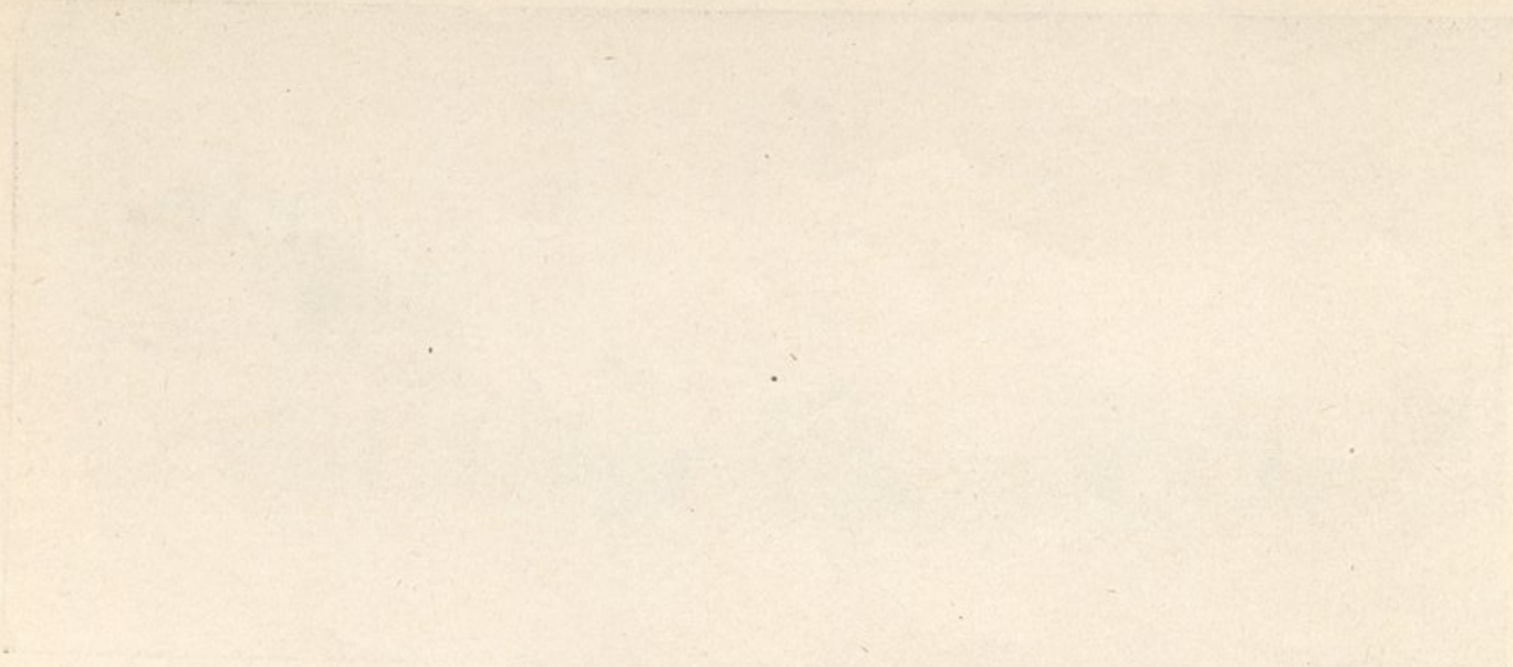

وهذه الحضارة تأثرت بنفوذ حضارة ايجه والعراق الى جانب النفوذ المصري الذي لم تبطل سيادته . وكانت تستعمل الكتابة ، وهي كتابة هيروغليفية ما يزال لدينا منها بضعة نصوص لم تحلّ رموزها بعد . ونعرف بيبلوس في ذلك العهد بيوتها المنتشرة حول ازقة ضيقة . وقد عثر على هيكلين اشتهر احدهما باسم « الهيكل ذي المسلات » التي يزين فناءه عشرون منها . وكانت الهياكل ما تزال سيئة البناء ، سوى ان القرابين التي وجدت في الهيكلين على جانب عظيم من النفاسة : فؤوس من الذهب الخالص ، وآنية من الفضة او من الشبه ، وتماثيل صغيرة للاله رشف من الشبه المغطى بالذهب ، وجواهر ثمينة ، ومجموعة من ثلاثماية حيوان تقريباً مصنوعة من الخزف وغير ذلك . هذا الى ان الحفريات التي اجريت في قبور الملوك اعطت هي كذلك كنوزاً فضلاً عن اهميتها التاريخية اذ كشفت لنا اسماء ملوك بيبلوس منذ القرن التاسع عشر قبل المسيح . فالملك ايبشمو الذي ملك في عهد فرعون أمنمحت الثالث (١٨٤٠ — ١٨٠٠ تقريباً) وجد مدفوناً مع صولجان من الشبه المعرّق في شكل حيّة ، وصحون من الشبه والذهب والفضة ، وحبيبات كثيرة ، وعدد كبير من آنية خزفية مختلفة الاشكال .

وبعد العام ١٦٠٠ لم يظهر في بقعة بيبلوس من الآثار الا نزر قليل لان قبور الملوك كانت قد نهبت منذ العهود القديمة ،

سوى انه عثر في واحد منها على التابوت المزخرف للملك أجيرام ، وعليه تاريخ هذا الملك . وقد عرفنا من رسائل الملك ريب أدّي التي وجدت في مصر انه كان تابعاً اميناً لفرعون في مفتتح القرن الرابع عشر . ثم بدأ النفوذ المصري بالكسوف ، ففي آخر القرن الحادي عشر استقبل الملك ذكربعل موفداً من طيبة استقبالاً سيئاً ، وما عتم الامر ان ادعى الملكان اليبعل وابيبعل تماثيل الفراعنة . وكان العصر الاشوري نكبة على فينيقيا التي نهبت تباعاً . على ان الازدهار عاد مع السيطرة الفارسية ، وقد عثر على نحو من مئتي قطعة فضية باسماء الملوك الاواخر قبل الاسكندر . والى العصر الروماني تنتسب دور خاصة اكتشفت مع حمامين ومسرح صغير ذي ستة ادراج رؤي في صحن قاعة النظارة معه فسيفساء جميلة مستديرة الشكل تمثل باخوس اله الخمر ، وحجرات لطيفة ذات اعمدة صغيرة مركبة على الحائط الذي يدعم الملعب .

مدينة مجهولة : رأس شمرا . في شهر آذار من العام ١٩٢٨ كان فلاح يحرث حقله بقرب جون « مينة البيضا » على بعد نحو من ثلاثة عشر كيلومتراً شمالي اللاذقية فعثر على بلاطة تغطي سرداباً ينتهي الى حجرة « معقودة في شكل سلة » . واذ أشعر السيد فيرولو ، مدير مصلحة الآثار ، بالامر ارسل السيد ألبانيز ، الملحق بمصلحته ، الى مكان الاكتشاف فوجد هذا

الاخير كِسر آنية مختلفة ووجد السيد فيرولو نفسه عدة آنية سليمة . وقد تبين للسيد دوسو ان هذه الآنية الخزفية هي من منتجات قبرص والميسانيين ويرجع عهدها الى القرنين الثالث عشر والثاني عشر قبل المسيح . وكان ان اهمية تلك البقعة التي كانت على ما يظهر مستعمرة قبرصية في ارض سوريا حملت اكاديمية الخطوط والآداب — نزولاً على طلب من السيد دوسو — على ايفاد بعثة اثرية الى قصبة مينة البيضا والى تل رأس شمرا المشرف عليها ، بادارة السيدين شيفر وجورج شينه . فباشرت العمل في شهر آذار من العام ١٩٢٩ . وهكذا بدأت اولى الحملات الاحدى عشرة التي بقيت حتى العام ١٩٣٩ تنتزع سنة بعد سنة اسرار هذا التل . اما النتائج فقد تجاوزت كل ما كان يرجى . فمن احشاء الارض خرجت مدينة وحضارة ولغة وادب ودين كانت كلها مجهولة . ومع هذا فقد رؤي بعد الحملة التاسعة ان الاشغال لم تتناول الا ثلاثة هكتارات من الخمسة والعشرين هكتاراً التي يشتمل عليها التل . هذا الى ان مجموع المساحة لم ينقب الا على عمق نحو من ثلاثة امتار في حين ان البحث دل على وجود طبقة اثرية يبلغ ارتفاعها نحواً من ثمانية عشر متراً .

ويظهر ان تل رأس شمرا سكنه في مطلع العصر الحجري الثاني قوم يستعملون ادوات من الصوان والعظم ويجهلون على

الظاهر صناعة الخزف (وقد عثر بمقربة من هذه البقعة شمالاً على آثار تثبت ان المناطق المجاورة كان يقطن فيها قوم من اواخر العصر الحجري الاول) . ولم تظهر صناعة الخزف الا فيما بعد ، وكانت ما تزال في طورها الاول ، مزخرفة بالظفر أو بأطناف محفورة في صلب المعجون . وفي الطبقة العليا التي يراوح عمقها بين اثني عشر متراً ونصف المتر واربعة عشر متراً ونصف المتر عثر على آنية مصقولة ذات الوان سوداء او سمراء واحياناً مائلة الى الحمرة ، وفي طبقة العصر المعدني الاول عثر على آنية خزفية ملوّنة بشتى الالوان ذات حوافٍ رقيقة ، تتلوها آنية خزفية حمراء وسمراء ذات أديم مائل الى البياض . وذلك الخزف أقرب ليس الى خزف حوض المتوسط بل الى الخزف المصنوع في آسيا الغربية حتى الهندوس . وليستطاع ارجاعه الى النصف الاول من الألف الثالث . ثم ظهرت طبقة عقيمة أثبتت ان الموقع قد هجر زمناً . ولما عادت اليه الحياة كنا قد صرنا في العصر التاريخي .

كان تل رأس شمرا يسكنه قوم ساميون على اتصال مستمر بالعراق لا سيما في مستهل العصر المعروف بالعصر البرونزي الاوسط . فلما اجتاحت الغزوات بلاد الفرات ، وذلك في نحو القرن التاسع عشر ، امتلأ معبدا أوغاريت (وهو اسم المدينة الاصلي) المشيَّدان لداغون ولابنه « بعل هدد » بهدايا الفراعنة من

الحفريات في مدينة ماري عام ١٩٣٨ ، ويرى نهر الفرات في الطرف ، وفي الوجه القصر الملكي بغرفه المتعددة ، وفي الوسط الى الجهة اليمنى بقايا البرج المقدس .

السلالة المصرية الثانية عشرة . فقد وجد تمثال لأبي الهول بعث به امنمحت الثالث ، ومسلة يمثل بعضها السفير المصري سنوسريت أنخ وزوجته وابنته ، وتمثال صغير للاميرة خنوميت التي تزوجها فرعون سنوسريت الثاني فيما بعد . وقد تبين ان نفوذ ميسينا وحضارة بحر ايجه كان كبيراً وانه كان ثمة ولا شك جاليات قبرصية و كريتية وميسينيَّة . وتبين من بعض الآثار كالدبابيس الغليظة الرأس والاطواق السميكة والآنية التي في شكل عرزال انه كان ثمة علايق مع اوربا والبلقان او مع الارياف الدانوبية . سوى ان عهد اوغاريت الجميل كان من القرن السادس عشر الى الثالث عشر وقد عرفنا هذا العهد اكثر مما عرفنا سواه . فقد تجملت المدينة في ظلّ فراعنة المملكة الجديدة اذ اكتشف حي بكامله من الابنية الرسمية ، ووجد اسطبل ملكي ذو أرض مبلطة ، وميدان لترويض الجياد ، ومحطّ للعجال ، وترسانة ، وبناية تحتوي الخزائن الديبلوماسية والمالية لملوك اوغاريت ، وقصور هؤلاء الملوك . وكل هذه الابنية من حجر النحيت الجميل ، وقد زينت مداخل القصور الفخمة منها باعمدة خشبية تردّت قواعدها بنحاس مصفح بالفضة . اما الابنية الخاصة فبيوت توفرت فيها أسباب الراحة متجمعة حول شوارع ذات زوايا مستقيمة كشوارع المدن الاغريقية بعد الاسكندر . وهذه البيوت تشتمل على حمامات كاملة العدّة ، وتحت كل بيت منها

قبر عـائلي تقام فيه للموتى شعائر دينية يمثل فيهـا الهرق دوراً كبيراً . وكان للمدينة مجارير مسوّرة وسور من الحجارة الجميلة يبلغ سمك منحدره خمسة امتار . ومما لا شك فيه ان القسم الاكبر من ازدهار المدينة كان عائداً الى أهمية مينائهـا ، مينة البيضا حالياً ، في التجارة الدولية بذلك العهد . ففي هـذا الميناء كانت المخازن والخانات تودع فيهـا البضائع الواردة عن طريق المراكب او القوافل. وقد وجد في احد هذه المستودعات اكثر من ثمانين جرة ، واكثر من الف اناء في مستودع آخر . وكانت تجارة الادهان الجلدية مزدهرة على الخصوص ، كما ان فن الصياغة كان متقدماً وقد اخرج صاغـة اوغاريت اشغالا على جانب كبير من الدقة. وقد وجد محترف للصياغة بسبائكه وآنيته وجواهره الفضية والذهبية وميزانه المدقق وكامل عدته . ولقد ابدع اولئك الصناع روائع كهاتين الطـاسين الذهبيتين اللتين نقشت عليهما نقوش تمثل اسداً مقتولا ، وحيوانات متجابهة ، وقناصاً على عجلة . وبين الاشغال البرونزية التي صنع قسم منهـا للتصدير رأسا خنزير بري جميلتـان وصقر منزّل ريشه بالذهب . وهناك صفيحة عاج من طراز ايجي اصبحت مشهورة فهي تمثل الهة الخصب عارية الثديين بين تيسين وحشيين تحمل بيدها سنابل .

وكان نشاط ثقافي عظيم قائماً في هذه المدينة . وكانوا يتكلمون في اوغاريت لغة قريبة من الفينيقية ويكتبونهـا

باحرف مسمارية عرفت من الكتابات التي وجدت في رأس شمرا ، واول من ابان ان هـذه الرسوم هي أحرف هجائية هو السيد فيرولو وحل رموزها الالماني بوير والفرنسي دورم . وأهم الكتابات الاوغاريتية التي اكتشفت سلسلة قصائد ميثولوجية لم يصر بعد الى فهم كل معانيها تمام الفهم ولكنها جاءتنا بنُبذ هامة عن الديانة الفينيقية وتاريخ هذه البلدان ، وانارت بنور جديد جانباً كبيراً من سير العهد القديم .

وفي نحو العام ١٢٠٠ حلت كارثة بأوغاريت فامّحت الى الابد ، فقد غزتها كتلة من شعوب جاءت من الشمال سماها المصريون « شعوب البحر » . وفي القرن السادس قبل المسيح استعمل البحارة اليونانيون على ما يظهر خليج اوغاريت واطلقوا عليه اسم « الميناء الابيض » ولا يزال يدعى كذلك .

مملكـة على الفرات في زمن ابراهيم : مـاري . في شهر آب ١٩٣٣ شاهد الليوتنان كابان ، ضابط المصالح الخاصة في ابي كمال ، على اكمة تدعى تل الحريري وتبعد نحواً من عشرة كيلومترات شمالي غربي هذه المدينة ، جمعاً من البدو يدفنون واحـداً منهم . وفيما هم كذلك عثروا على تمثال حمله الليوتنـان كابان الى ابي كمال . وكان ان السيد بلوى ده روترو ، مفتش مصلحـة الآثار في حلب ، قام بجولة تفتيشية ووضع تقريراً عن البقعـة فطلبت المتاحف الوطنية في فرنسا امتيازاً باجراء الحفريات فيها فمنحتها

مصلحة الآثار هذا الامتياز . وفي ١٤ من كانون الاول ١٩٣٣ بدأت اشغال الحفر بادارة السيد بارو ، وتواصلت مدة خمس حملات حتى شتاء ١٩٣٨ ــ ١٩٣٩ واتت بنتائج عظيمة .

فمنذ الحملة الاولى وجدت ادلة راهنة على ان التل يغطي بقايا ماري ، المدينة العظيمة في تاريخ ما بين النهرين . وكان موقع هذه المدينة مجهولا ولكن المؤرخين يقولون انها كانت مركزاً لواحدة من اولى السلالات التي ملكت « بعد الطوفان » . وقد اظهرت الحفريات ان المدينة كانت مزدهرة في بدء الالف الثالث في العصر المعروف بما قبل سرغون لانها تقدمت انشاء سرغون اغاديا ، اول مملكة سامية كبرى في ما بين النهرين . وكان بناء المدينة الكبير هيكل الالهة عشتار وله مدخل بستة اعمدة . وفي هذا الهيكل وجدت تماثيل صغيرة لنساء ورجال في موقف العبادة موضوعة على دكات تملأ الغرف الداخلية من الهيكل ، ولوحات من عرق اللؤلؤ تمثل نهاية معركة ، ومحاربون يجيئون بالاسرى الى ملك ماري وعائلته ، ورأس لعشتار معصوب بقلنسوة كبيرة .

وفي القرن الثامن والعشرين استولى سرغون اغاديا على المدينة وخربها وهدم الهيكل وشوّه التماثيل . على ان السلام ما لبث ان عاد الى المدينة فازدهرت من جديد وأُعيد بناء الهيكل . وفي نهاية الالف الثالث بني على قدم احد الابراج ذات الطوابق

تمثال الآلهة ذات الكأس المندلقة . وهو من
اجمل التماثيل التي اكتشفت في مدينة ماري .

كبرج بابل معبد آخر للآله داغان أقيم على حراسته اكثر من عشرين اسداً من الشبه لم يعثر منها الا على اثنين . وشيد اولئك الملوك لانفسهم قصراً افرغ منه في العام ١٩٣٦ مئة وثمان وثلاثون غرفة . ولا تزال جدران هذا القصر قائمة ويراوح ارتفاع ما بقي منها في بعض الاماكن بين اربعة امتار وخمسة . اما زينته فباقٍ منها بضعة آثار : عصائب افقية سوداء وحمراء ، ولوالب بيضاء وزرقاء ، وتصاوير جميلة تمثل حفلة تنصيب عشتار لملك ماري .

وكان القصر يحتوي على لوحات هامة وجد منها خمسة وعشرون الفاً في العام ١٩٣٧ ، وهي اللوحات المالية والديبلوماسية لملوك ماري ولاسيما للملك زمري ليم الذي ملك في نحو العام الالفين قبل المسيح ولم يقوَ على اجتناب ضربات جار له عظيم هو الملك حمورابي ، ملك بابل الذائع الصيت الذي استولى اخيراً على ماري فجزّأها وهدم هيكلها . وتدلنا المراسلات الملكية على اتساع الافق السياسي لملوك ماري : اشور وبابل وكركوك وكول تبه التي وجدت فيها خزائن جالية اشورية هامة ، وبيبلوس واوغاريت وهي رأس شمرا . وبعد استيلاء حمورابي على المدينة استعادت شيئاً من مجدها ، وقد زعم ملك يدعى يهدونليم انه رفع جدرانها وبسط سلطانه على بلدان مختلفة . ولكن في الواقع صارت المدينة حاضرة اقليمية ما عتم الامر ان انطفأت .

في العام ٣٣٢ قبل المسيح دخلت الحضارة الاغريقية الى سوريا. دخول الفاتح وراء الاسكندر ، وكانت قد شرعت في التسلل الى هذه البلاد منذ زمن . وهذه الحضارة الجديدة طبعت بطابعها القوي جميع وجوه الحياة الاجتماعية في الشرق مدى قرون ، سوى ان اللباس الاجنبي لم يمنع روح الشعب السوري من الاحتفاظ بمزاياه الاصلية . وكثيراً ما كان يظهر الوجه الاغريقي بمظهره السطحي بحيث يكفي ان يحفر قليلاً ليبدو أديم الحضارة الآرامية وما قبل الآرامية . وكان شأن هذه الثقافة كشأن أسماء العلم في ذلك العهد ، فقد كانت من الجنس السامي بالرغم من آخرها اليوناني .

على حدود العالم الروماني : دورا . كان المسافرون على طول طريق الفرات قد نبّهوا الى خرائب قصر قديم بين دير الزور وابي كمال ، وكان ابناء هذه المنطقة قد اطلقوا على تلك الخرائب اسم الصالحية . ففي العام ١٩٢٠ حملت مخاطر الحرب الى تلك الجهة فصيلة من السيباي بقيادة الكبيتان مورفي . وفيما الجنود يعسكرون هناك عثروا صدفة على قطعة من جدار ملوّنة تمثل اشخاصاً عديدين بينهم كاهن بارز التقاسيم ، معصوب الرأس بقبعة مخروطية عالية . فأنبأ الكبيتان مورفي الآنسة جرترودبل ،

مـديرة مصلحة الآثار في العراق ، باكتشافه فاغتنمت فرصة وجود جمس بريستد العالم الاميركاني بالآثار المصرية ، فاوفدته الى مكان الاكتشاف للنظر في الامر ، واذ كان الجيش البريطاني على أهبـة الجلاء عن المكان فلم يكن لبريستد الا نهار واحد يتفحص فيه الخرائب ويصـور القطعـة الاثرية المذكورة . وفي الخـامس من تموز ١٩٢٢ قدم الصور الفوطوغرافية الى اكاديمية الخطوط والآداب ، فاهتمت هذه الاخيرة اهتماماً كبيراً للامر واوفدت في الحال السيد كومون فاستخدم اليد العـاملة التي جهزته بها الفرقة الاجنبية في اعمال الحفريات في شهر تشرين الثاني ١٩٢٢ ، ثم في شهر تشرين الاول ١٩٢٣ ، وما عتم الامر ان نفدت الاعتمادات المالية فتوقفت هذه الحفريات الطـافحة بالوعود والآمال . وكان ان الاكتشافات التي اسفرت عنهـا حفريات السيد كومون استهوت السيد روستوفتزيف ، استاذ التاريخ القديم في جامعة يال ، فتمكن من الحصول على مساهمة جامعته وعلى اعتماد مالي من مؤسسة روكفلر . وهكذا تأسست بعثة من اكاديمية الخطوط والآداب ومن جامعة يال تحت ادارة السيدين كومون وروستوفتزيف العلمية . اما ادارة الاشغال فقد عهد بها تباعـاً الى الفرنسي السيد بيله والاميركيين هوبكنس وبرون ، واستؤنفت الحفريات في العـام ١٩٢٨ وبقيت الى العام ١٩٣٧ .

وفي نحو العام ٣٠٠ قبل المسيح أسس نيكانور ، وهو من كبار الشخصيات المقدونية التي لم تثبت هويتها ، مستعمرة يونانية في محلة بابلونية اسمها دورا ، واطلق على هذه المستعمرة اسم اوربوس . ومع الضعف الذي ادرك المملكة السلوقية سقطت المدينة في حوزة الارساسيين الذين تركوا للمقدونيين والاغريق شطراً كبيراً من الحرية في التصرف بشؤونهم ، وذلك في النصف الثاني من القرن الثاني قبل المسيح . وفي خلال القرنين الاولين لعهدنا هذا عرفت دورا اوربوس ازدهاراً عظيماً يرجع الفضل فيه الى كونها محطاً من طريق القوافل بين الخليج الفارسي والفرات الاعلى . وفي ذلك الزمن كثر عدد الساميين في المدينة واختلطوا بالمقدونيين والاغريق حاملين اليهم آدابهم ولغاتهم وآلهتهم . وكان تراجان قد احتل دورا موقتاً فغزاها لوسيوس فيروس وافيديوس كاسيوس وصارت قلعة رومانية حصّنها سبتيموس سويروس وكركلا على الخصوص .

ولما حلت سلالة الساسانيين الفتية المشبعة بروح وطني عدائي محل السلالة الارساسية في العجم كان أول ما فكرت فيه ان تهاجم الامبراطورية الرومانية . وفي العام ٢٥٦ ، بعد حصار طاحن دلت الحفريات عليه ، احتلت دورا وفتك بسكانها المدنيين والعسكريين او استعبدوا . وبعد احتلال قصير ترك الفرس المدينة . وبعد قرن او ازيد اتيح ليليانس الذي عوّج على المدينة ان

لوحة زيتية وجدت في حفريات دورا اوروبوس ، وهي تمثل
رأس كاهن .

يرى الاسد مطروداً بين خرائبها .

ولقد كشفت الحفريات عن مدينة ازدهرت في عهد الفرس على الخصوص ، وقد بنيت دورا بشكل رقع الشطرنج على طراز المدن اليونانية بعد الاسكندر ونفض الغبار عن منازل عديدة بينها منزل كان احد التجار يخط ارقامه على جدرانه ، ومنزل آخر زين المصور الفارسي اورثونوبازوس احد افاريزه بتصاوير مأخوذة عن الفن اليوناني ، ولا يزال السور العظيم الذي يحيط بدورا قائماً الى اليوم . وبين الابنية العامة عدد كبير من الهياكل اول ما عثر عليه منها هيكل الآلهة التدمريين الذي كانت فيه القطع التصويرية المدهشة اكتشفها بريستد ، وتمثل احداها وطنياً معصوب الرأس بقبعة مخروطية عالية يرفع قرباناً امام عائلة رجل يدعى كونون . وتمثل اخرى الخطيب يوليوس طرنطيوس في مقدمة جماعة من رماة السهام يرفع قرباناً الى ثلاثة آلهة تدمريين والى رمزي تدمر ودورا . وفي جملة تلك الهياكل هيكل ارتميس نانايا وهيكل اتارغاتيس ، وهيكل جوبيتير دوليخنوس وهيكل هدد ، وهكذا امتزجت المعبودات الاغريقية و « البربرية » . ولكن في نحو القرن الثالث ظهرت عبادات جديدة دلت حفريات دورا على اهميتها ، منها عبادة الآله ميترا التي يمثلها هيكل مزدان بنقوش وتصاوير تسرد لنا

حياة هذا الآله ومآثره . وهناك قطعة تصويرية عجيبة ترينا الآله ميترا يصيد على فرسه وهي اشبه بالتصاوير الفارسية الدقيقة . وكنيس رسم على جدرانه تاريخ العهد القديم بكامله في قطع تصويرية يظهر فيها موسى بمظهر معلم يوناني ، وقد تولى السيد بيرسن مهمة نقل هذه التصاوير الى متحف دمشق ، وهناك اعاد الى الكنيس ترتيبه الداخلي بحيث يستطيع كل منا اليوم ان يتأمل كل الصور في طراوتها العجيبة . ومعبد مسيحي لم يحفظ لسوء الحظ كما حفظ الكنيس ، وقد زيّن بقطع تصويرية على جانب كبير من الاهمية يمثل بعضها الراعي الصالح ، وآدم وحواء في حديقة عدن ، ويسوع ماشياً على الماء ، والنساء الصالحات على القبر ، وداود وجليات . هذا الى ان جفاف الجو حفظ عدداً كبيراً من الاشياء القابلة الزوال من الانسجة والاحذية والاخشاب والدروع المزينة بمشاهد حرب طروادة او الحاملة قائمة بالمراحل التي اجتازها صاحبها ، وعدداً كبيراً من الرق والبرديّ له اكبر اهمية في تاريخ الحقوق والاقتصاد والاديان . واكبر الظن ان بين هذه المخطوطات اقدم رق يوناني معروف .

مملكة يوم : تدمر . كان المؤلفون الكلاسيكيون قد تركوا لنا لوحة كبرى عن عظمة واحة تدمر الواقعة في صحراء سوريا ، في منتصف الطريق بين منطقة الغرب العامرة وبلاد ما بين

AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO
LIBRARY

النهرين . وكانت اسماء هـذه المدينة وملكتها زنوبيا ووزيرهـا لونجينوس ماثلة في ذاكرة جميع ادباء اوروبا . ولقد بلغ الطرب مبلغه حين علم في القرن الثامن عشر ان خرائب هذه المدينـة القديمة ما تزال قائمة في وسط الصحراء . وكانت هـذه الصورة تراود مخيلة كثير من الرجال كبلزاك وبودلير . فاقدم قليل من السياح على اقتحام المخاطر والاتعـاب لعبور الصحراء ومشاهدة تلك الآثار العجيبة او دراستهـا ، فضلاً عن ان هناك من اكب على دراسة اللغة التدمرية القديمة . وما عتم الامر ان سهلت طرق الاسفـار ، وجاء الانتداب الفرنسي فأمنهـا ، والسيارة فجعلتها اكثر سرعة ورفاهية .

اما مصلحة الآثار فقد اهتمت باكراً جداً بهذه الخرائب ، فجعلت تحت رعايتها اعمال التنقيب التي قام بها السيد انغولت ، الاختصاصي الدانمركي الكبير ، في العام ١٩٢٤ برفقـة السيد دونان وكان مفتشاً لمصلحة الآثار ، فرفقة السيد غبريال في العام ١٩٢٥ ، فالمهندس الدانمركي كريستنسن في العام ١٩٢٨ . وفي العام ١٩٣٨ نفض السيد انغولت الغبار عن بضعة قبور لحساب متحف دمشق . سوى ان اهم الامور كان صيـانة الآثار العديدة القائمة وتدعيم ما يهدد منها بالانهيار ، وابراز ما حجبته منها الابنية الحديثة ، وترميم ما يمكن ترميمه منهـا . فوضعت خطة للاشغال واسعة النطاق وتحملت الحكومة السورية نفقـات

المشروع وكانت جسيمة . وفي العام ١٩٢٩ بدأ العمل تحت ادارة السيد سيريغ العلمية ومعاونة المهندس آمي والسيدين شلومبرجه وكانتينو فالسيد دورو فيما بعد .

كان العرب الذين يعيشون من مزروعات واحة تدمر قد اختاروا هيكل الآله بيل وهو اكبر ابنية تدمر وفي شكلٍ مربع يبلغ طول كل من جوانبه مئتي متر ، ليبنوا فيه قريتهم فكانت جدران ساحته سوراً متيناً يقيهم غزوات البدو . وهكذا وراء المنازل الحديثة احتجب البناء الفخم القديم بأروقته المنتصبة المحيطة بفناء رحب يقوم في وسطه مقر الآله . فتولت مصلحة الآثار نقل السكان الى قرية بنيت لهم خارج الهيكل وهدمت القرية السابقة . وبذلك أعادت الى الهيكل طابعه الاصلي وفسحت السبيل الى اكتشاف آثار على جانب كبير من الاهمية . وما يقال عن الهيكل الاكبر يقال عن سائر أبنية المدينة ، عن الهياكل الثانوية ، ورواق الاعمدة الكبير ، والقبور فقد أطلقت ودُعمت ورُممت . أما أجزاء التماثيل والنقوش والرسوم المبعثرة هنا وهناك والمعرضة للآفات الفلكية فقد جُمعت كلها في مستودع . وفي متحف دمشق قطع جميلة من هذه الآثار بينها كل ما ازدان به أحد القبور العائلية الخطيرة وهو ضريح يرهاي الذي يرجع الى العام ١٠٨ الميلاد وقد نقل الى دمشق حيث اعاده السيد ايكوشار الى حالته الاصلية .

تدمر : صورة معبد بيل ، اخذت قبل تطهير المنطقة العام ١٩٢٧ ، وقد بدت مساكن البدو داخل الهيكل وفي كل مكان منه .

وصفوة القول ان مصلحة الآثار أرجعت الى تدمر وجهها القديم بقدر ما كان بالامكان وفسحت السبيل الى جعل تدمر ذلك المركز الكبير للسياحة . ولا نزاع في ان دولة سوريا أظهرت أمجاد ماضيها بما بذلته من الاموال وزادت لمستقبلها رأسماله الغني .

الآلهة الجدد

الآلهة الجدد . في أوج العظمة اليونانية والرومانية حل ببطء ودفعة بعد دفعة ادراك جديد للعالم كان بعضه انتقاماً للروح السامي . وما لبث تأليه الطبيعة المتعددة الاشكال ان فسح السبيل لعبادة الآله الواحد الذي هو روح طاهر لا يرى بعين المادة . وجاءت المسيحية فقلبت العالم القديم بطناً لظهر ، وأقبل الاسلام فأجهز عليه ، وفي كلتا الحالين ذهبت من تخوم البلد السوري تلك الشرارة التي اشعلت العالم ، وكانت سوريا اول البلدان التي انعكست عليها الاحداث الجديدة .

مار سمعان العمودي . انتشر الدين المسيحي بسرعة في سوريا . ومعلوم ان الدين الجديد اخذ اسمه في انطاكية واتخذ فيها شكلا خاصاً ذا أهمية من عدة وجوه ، وكان له اصطلاحاته وطقوسه الخاصة وأدبه الخاص .

« ومن عهد سوريا المسيحي ، بين القرن الثالث والسابع ، لنا آثار على جانب عظيم من الاهمية . ففي ناحية تكاد تصبح اليوم قفراء تقوم مدن بواجهات كنائسها وكاتدرائياتها وأبراجها وأروقتها وسقوفها ، ومماشي بيوتها ، وحوانيت أسواقها ومخازنها ، وحماماتها السليمة ، وأديرتها الكبيرة ، وفنادقها ، وقبورها الجميلة ذات الشكل الهرمي أو المقبَّب وهي ما تبرح مزدانة بنواويسها . » وقد أطلق الأب ماترن الذي استعرنا منه هذه الاسطر على هذه الآثار الجليلة اسم « المدن الميتة في سوريا العليا » وشبهها بحق ببومبيه او بهرقلانم ، مفضلاً حتى على مدن كامبانيا المشهورة جمالها ومتانتها الهندسيين اللذين تعطيهما الاطواد الضخمة من الحجارة الكلسية البيضاء .

وهذه « المدن الميتة » تكسو البلاد الجبلية بأسرها في غربي حلب وجنوبيها الغربي . ولكن أروع هذه الآثار كلها هو ولا نزاع المعبد الكبير المشيد لمار سمعان العمودي ، وقد قال عنه الاب ماترن انه « اعظم الأبنية المسيحية التي بقيت لنا قبل روائع القرنين الحادي عشر والثاني عشر في الغرب . » فمساحته تبلغ ٣٨٤٠ متراً مربعاً ويقوم في وسطه العمود الذي صرف عليه القديس حياته التكفيرية . والواقع ان سوريا كانت تستحب بوجه خاص ذلك النوع من التزهد وهو البقاء سنين عديدة على قمة عمود والانصراف الى الصلاة والتوبة . والذي ابتدع ونشر

هذه الطريقة هو راع كيليكي ولد في نحو العام ٣٨٩ . فبعد ان روّع رفاقه في الدير بزهده وتقشفه انزوى في مكان مقفر لينصرف الى حياة التأمل . وكأنّ المعجبين به وهم كُثر أزعجوه في خلوته فرؤي له ان يبني لنفسه عموداً فبناه وأقام على قمته ثلاثين سنة الى ان توفي في العام ٤٥٩ . وقد كان الناس يحجون اليه ليقتدوا به فيقبلون من جميع بلدان العالم المعروف ، حتى من فرنسا اذ كان بجيشه الباريسيون حاملين اليه تحيّات من القديسة جنفياف، ولم تبطل هذه الحركة بعد وفاته بل استمرّ اقبال السياح على العمود ليتبركوا به . ويبدو أن ثمة عدداً من الزهّاد حذا حذوه فبنى لنفسه أعمدة حول عمود مار سمعان وأقام على قمتها . وما عتم الأمر ان بُني حول العمود معبد عظيم زاره أفاغريوس عام ٥٦٠ ووصفه على نحو ما هو اليوم . فالعمود يقوم في مركز ساحة مثمنة الزوايا مكشوفة يبلغ قطر دائرتها ٢٨ متراً . وفي كلٍ من جوانب هذا المثمن المواجهة للجهات الأربع يقوم معبد بحيث يبدو البناء في مجموعه بشكل صليب كبير يتألف كل من فروعه من كنيسة وتلتقي الفروع في الساحة الوسطى المثمنة الزوايا .

وأجمل الأبنية المسيحية الأثرية في سوريا العليا ، بعد معبد مار سمعان العمودي ، هو معبد قلب لوزة الذي شيد في القرن السادس وقال عنه السيد ديل انه أعجوبة الفن المسيحي القديم

في سوريا . ويتألف هـذا البناء الجميل من ثلاثة صحون تحيط بالاوسط منها أعمدة ثقيلة مربعة الزوايا تدعم أروقة مُقبَّبة يقوم فوقها جدار فُتحت فيه نوافذ قائمة الزوايا . ويزدان رأس هـذا المعبد بصفين من الاعمدة المنضدة كمعبد مار سمعان . فالمهندس لم يجرؤ على اجتناب الطريقة القديمة التي تخالف بناء أعمدة شاهقة بالقياس الى قاعدتها ، ولم يشأ الاسراف في توسيع هذه الاخيرة كيلا يخـالف سنَّة الاناقة والجمال . ويلاحظ أيضاً ان المهندسين السوريين أتوا ببدعـة أصابت قسطاً كبيراً من النجاح إذ بنوا أمام المدخل رواقاً مفتوح الجوانب يعلوه سطح ويحيط به برجان ، نموذج بعيد من واجهات الكاتدرائيات الفرنسية . وهذه البدعة حلت محل الباحة للبازيليقا اليونانية بعد الاسكندر .

وثمة أعجوبة أخرى هي بازيليقا تورمانين ، وهي من طراز يختلف عن السابق اختلافاً قليلاً . فأبراجها الأقل ضخامة مربوطة بصف من أربعة أعمدة يدعم سطحاً ينم عن خفة روح وظرف ، على انه لسوء البخت لم يبقَ شيء من هذه البازيليقا التي اعجب بها ده فوغه في العام ١٨٦١ — ١٨٦٢ ، ولا من الاعمدة التي كانت تزين رأس معبد مار سمعان ، ولا من كثير من الأبنية الجميلة في هذه المنطقة . ذلك ان هذه البلدان القفراء فيما مضى اخذت تمتلىء بالسكان شيئاً فشيئاً بفضل الطمأنينة الـتي حلَّت بحلول الانتداب ومختلف الاحوال الاقتصادية الملائمة . وقد وجد السكان

في دورا اوربوس : منظر الحفريات العام ١٩٣٨ ، ويرى بقايا السور العظيم الذي كان يحمي المدينة .

الجدد في متناول ايديهم حجارة جميلة منحوتة نحتاً جيداً فاستعملوها في بناء بيوتهم . ومثل هذا التخريب حصل في كل زمن ناهيك بالتخريب الذي احدثته الزلازل الارضية قديماً وحديثاً .

وبديهي ان تقف مصلحة الآثار زمناً طويلاً موقف العاجز حيال هذا التخريب الحديث بسبب اضطرارها الى حماية بقاع من الآثار واسعة المدى . ولم تتمكن الا في العام ١٩٤٢ ، وبفضل الاعتمادات التي اعطتها فرنسا الحرة ، من تطبيق خطة واسعة النطاق لحماية « المدن الميتة » التي زارها الفيكونت ملكيور ده فوغه عام ١٨٦٩ — ١٨٦٢ ونقل اشكال جانب منها ، فالبعثتان الاميركانيتان لجامعة برنستون عام ١٩٠٠ و ١٩٠٤ و ١٩٠٩ ، فقامت مصلحة الآثار بسد ثغرة الاستناد بشأن هذه الابنية ، وبتدعيم ما أمكن تدعيمه وترميم ما امكن ترميمه من الاهم منها ، ففي معبد مار سمعان العمودي جرى تدعيم الرواق الذي كان يهدد بالانهيار ، ثم فُك ورُكب من جديد ، وفي قلب لوزة جرت اعمال ترميم انقذت المعبد من الخطر . ورمم قبر في البارة . ومن العام ١٩٣٩ الى ١٩٤١ واصل السيد تشالنكو ، مهندس مصلحة الآثار الذي تولى ادارة الاشغال التي ذكرناها والسيد لاسوس من معهد دمشق الفرنسي ، درس نحو من ثلاثين من هذه المواقع ، وخصا رؤوس الاعمدة بدراسة كاملة . وفي العام ١٩٣٨ قام العالمان الاثريان الالمانيان كرنكر ونومان

بحفريات قصيرة في معبد مار سمعان أسفرت عن نتائج ذات شأن .

قصر الحير الغربي . لزمن بعيد لوحظت خرائب قصر ظن انه روماني ، قائمة في طريق الصحراء المؤدية من دمشق الى تدمر ، على بعد ستين كيلومتراً من هذه المدينة الاخيرة . وكان ان الاب بوادبار قام بجولة جوية دلّت على ان لهذا القصر الذي يسميه ابناء البلاد قصر الحير صلة بسد خربقة الكبير الذي يربي طوله على مئتي متر ، ويبلغ ارتفاعه ثمانية عشر متراً ، وعرض اساسه ثمانية عشر متراً ، ويستطيع ان يستوعب مئة واربعين الف متر مكعب ، فأجرى السيد شلومبرجه ، مفتش مصلحة الآثار ، في العام ١٩٣٦ ، حفريات في قصر الحير أتت سريعاً بنتائج على جانب كبير من الاهمية .

وبعد حملة التنقيب الثالثة ، أي حملة ١٩٣٨ ، اتضح ان قصر الحير ليس قصراً رومانياً ، خلافاً لما كان يعتقد ، فقد بدا ان قوماً من التدمريين سكنوا هناك في ذلك العهد وعاشوا من نتاج البساتين التي يرويها مشروع خربقة . ومن العهد البيزنطي بقي برج هو بمثابة مدخل عسكري ، وكتابة من القرن السادس تنبىء بان ديراً قد شيد في زمن الامير العربي الحارث . سوى ان القسم الاكبر من الابنية يرجع الى زمن الامويين . فقد دلّت الحفريات التي أجريت في القصر نفسه دلالة لا نزاع فيها على ان هذا القصر بناه الخليفة الاموي هشام . فهؤلاء الملوك كانوا

تدمر : صورة معبد بيل العام ١٩٣٧ بعد ان انتهت عمليات التطهير ، وقد نقلت مساكن البدو الى خارج سور الهيكل . ويرى في اعلى الرسم والى اليسار المقابر وهي اشبه بابراج صغيرة .

يرغبون في الاستراحة من عناء الحكم فيبنون لانفسهم بيوتاً ريفية يطلقون عليها اسم بادية ما يزال بعضها قائماً في صحراء سوريا وشرقي الاردن . وكانت هذه البيوت ايضاً محطات لرحلات الصيد التي كانوا يقومون بها في تلك الجهات ، فيزينونها بزين بديعة . فالسقوف مزينة باخشاب منحوتة وبتصاوير مختلفة ، والواجهات مكسوة بالفسيفساء وبصفائح من الملاط تمثل ليس رسوماً هندسية وازهاراً فحسب بل وجوهاً بشرية وحيوانات ايضاً . وقد نقلت هذه الصفائح المحطمة الى متحف دمشق وستكون واجهة قصر الحير التي يجري ترميمها في عداد اهم اقسام المتحف .

مشوّق ومعقّد هو فن قصر الحير ، فهو ينبئنا بما كان عليه الفن الاسلامي الاول . فهذا الفن كان يستخدم لاغراضٍ جديدة اشكالاً قديمة يستعيرها على الخصوص من الفنون الاغريقية الرومانية ، والفارسية ، والتدمرية ، والمسيحية الاولى .

عرب وفرنجة في القرون الوسطى . لقد اظهر لنا قصر الحير الحضارة الاسلامية وهي بعد في مستهلها تبحث فيما يختص بالحضارة المادية عن طريق لها في استخدام الادوات القديمة . وما عتم الامر ان نفضت عنها التردد وتكوّنت الحضارة الاسلامية من مجموعة منسجمة ومتينة من مختلف التقاليد التي نفخت فيها روحها .

فالابنية الاسلامية لذلك العهد منها ما خرب تخريباً لا قيام

له بعده ، ومنها ما لا يزال قائماً اما على صورته الاصلية أو على صورة شوّهته بها الاصطلاحات الحديثة . فكان على مصلحة الآثار بالاتفاق والاوقاف الاسلامية ان تقوم بمهمة الوقاية والتدعيم والترميم . (نرجع القارىء الى كتاب « ترميم الابنية الاسلامية في سوريا » للسيد ايكوشار .) ولنحصر بحثنا الآن في خصوم صلاح الدين .

ليس من الفائدة في شيء ان نسعى من جديد الى وصف تلك الموجة العاطفية الممزوجة بالتقوى الدينية وروح المغامرة والرغبة في الاثراء التي حملت يوماً الغربيين السذج في فجر حضارة ناشئة الى هذه البلدان الشمساء التي كان يقطنها قوم اكثر مراناً ويتمتعون بثقافة كثيرة النمو كثيرة المهارة والذوق فنقلوا اليها انظمتهم وآدابهم وعاداتهم وفنونهم وتأثروا في الوقت نفسه بفنون ابناء البلاد وعاداتهم وآدابهم وانظمتهم . وكما انه شوهد دوقات وكونتات وبارونات وبورجوازيات واقطاعات على ضفاف العاصي والليطاني هكذا شوهدت قلاع ترتفع بابراجها وكنائسها وخنادقها الواسعة وبوارجها . وهذه القلاع التي كان يستظلها أصحاب الاقطاعات والارقاء كانت ملك البارونات أو الرهبنات . ولا تزال مبانيها المتينة تشرف على أودية سوريا البحرية . ومن هذه القلاع التي شوّهها الزمن أو يد الانسان قلعة صهيون بقرب اللاذقية ، وقلعة الصليبيين المشهورة بقلعة

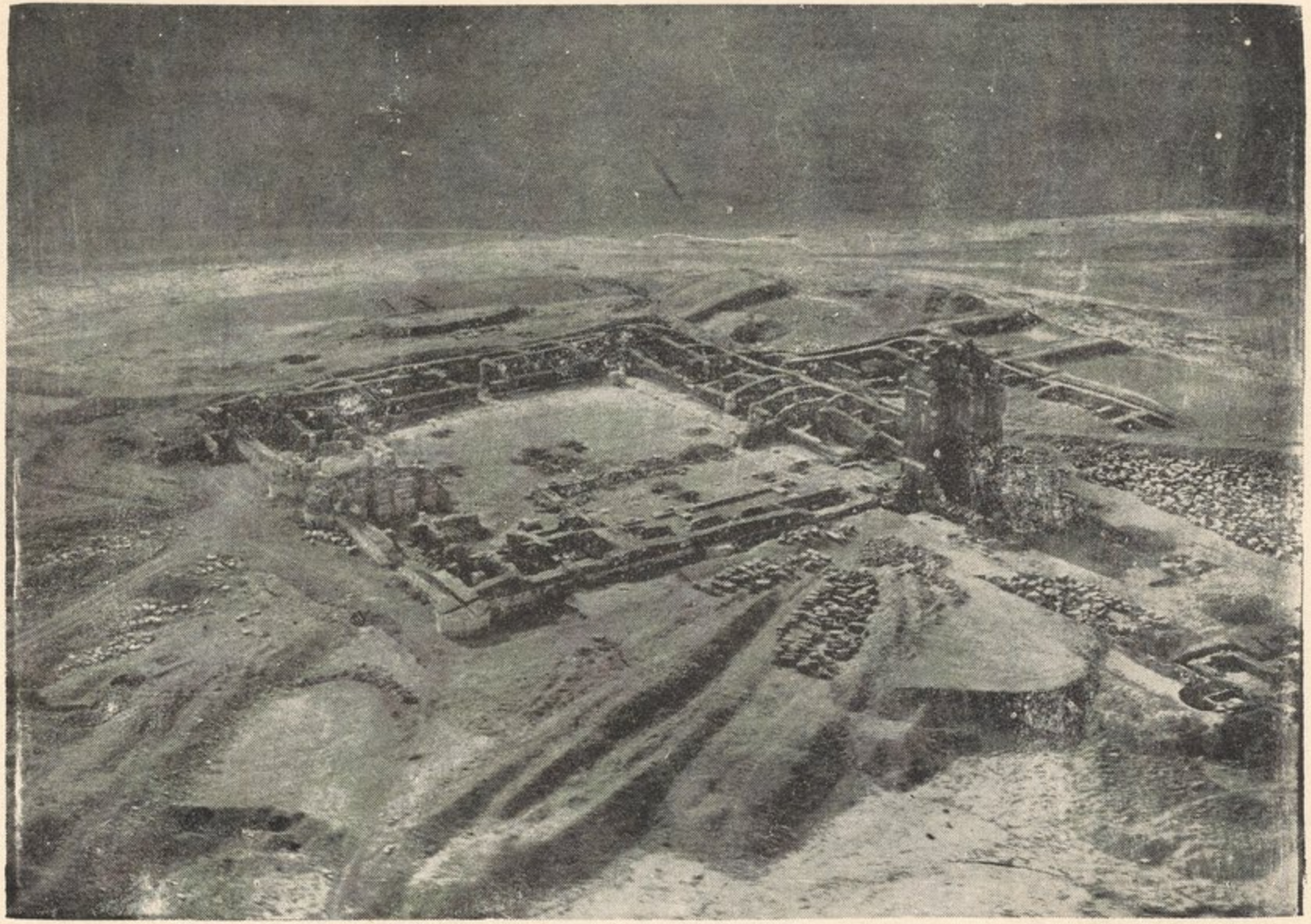

قصر الحير الغربي العام ١٩٣٨ ، ويرى الى اليمين البرج البيزنطي ، والى اليسار مدخل القصر مع البرجين القائمين على جانبيه .

الحصن على طريق حمص ، والبرج الابيض في صافيتا بين قلعة الحصن وطرطوس ، والبرج الاحمر بين صافيتا والبحر ، والمرقب الذي كان الفرسان المضيفون يتكفلون فيه بحامية من الف رجل ، وطودون الذي كان يحمي صور من البر وكثير غيرها . والى جانب الابنية العسكرية تقوم ابنية دينية رائعة ككاتدرائية مار يوحنا في بيروت ، وهي اليوم الجامع الكبير ، وقد بني القسم الاكبر منها في زمان اسقفية بودوان (١١١٢ ــ ١١٤٧) وكاتدرائية سيدة طرطوس المحصنة وربما ذات الشرفات ايضاً .

وبديهي ان تشمل مصلحة الآثار بعنايتها ابنية الاجداد هذه التي سلكت فيها منذ مدرج القرون الوسطى أولى سياسات الاتفاق الفرنسي العربي ، وقد قال الرحالة المسلم الشهير ابن جبير :

« ومساكنهم [أي المسلمين] بأيديهم وجميع أحوالهم لهم وكل ما بأيدي الافرنج من المدن بساحل الشام على هذا السبيل ... وهذه من الفجائع الطارية على المسلمين ان يشتكي الصنف الاسلامي بجور صنفه المالك له ويحمد سيرة هذه وعدوه المالك له من الافرنج ويأنس بعدله . »

منذ العام ١٩٢١ باشر انلار وجوسران دراسة هذه الابنية وحل محلهما بيله في العام ١٩٢٦ ، وديشان وانوس في العام ١٩٢٩ ، وديشان وكوبيل في العام ١٩٣٦ . وعهد باعمال الترميم الى مهندسي مصلحة الآثار انوس من العام ١٩٢٩ الى ١٩٣٣

وكوبيل منذ العام ١٩٣٤ . وكانت قرية صغيرة قد استوطنت ظلال قلعة الحصن اذ توافرت فيها الشروط الصالحة لسكنى الناس والماشية كالفسح المسوّرة والآبار وغيرها ، فوهبت هـذا البناء لفرنسا وذلك في العام ١٩٣٣ . وفي العـام ١٩٣٤ نقل سكان تلك القرية الصغيرة الى المحلات القائمـة على منحدرات الاكمة الوعرة بعد ان عوّض عليهم بما يوازي ما فقدوه من املاكهم . ومنذ ذلك الحين قامت الاشغال في اسوار القلعة مـدة سنتين ودوّت جدرانها من جديد بفولاذ « المعاول والشفار » الفرنسية ، واسندت الجـدران التي خرّبتهـا السيول ، ودعّمت المشارف المتداعية . واليوم يبدو هذا الاثر الجليل على صورته الاصلية . وقد كانت الاشغال التي بدأت في قلعـة الحصن مفتتح اشغال اخرى في قلاع صهيون والمرقب والشقيف التي ترصد لها مصلحة الآثار اعتمادات سنوية من الميزانية المخصصة لهـا . فبفضل دولة العلويين انقذ من التلف البرج الابيض الذي دعا الى انقـاذه السيد ديشان ، مدير متحف التروكاديرو للنقوش المقارنة حاليـاً والاختصاصي غير المنـازع في الفن الفرنجي بسوريا . ولا تزال الاعتمادات المالية الى اليوم تساهم مساهمة مستديمـة في ضمان مصيرٍ احسن لذكريات الملحمة الفرنسية في الشرق .

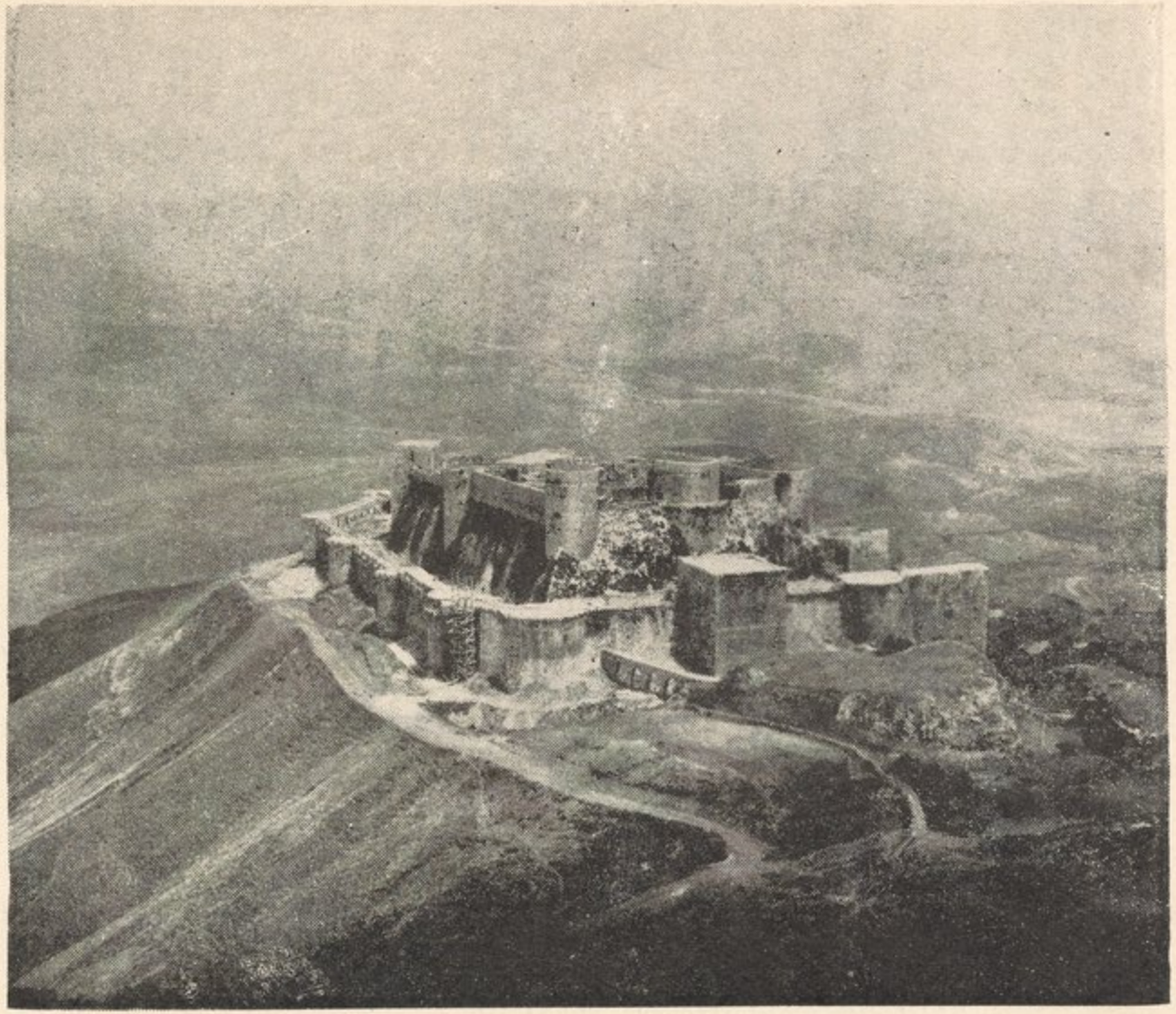

قلعة الحصن وهي اجمل قـلاع الصليبيين في الشرق واحفظها من التلف .

خاتمة

دل هذا البيان على ان كل تلك الجهود الاثرية لم تكن بالامكان لولا مساعدة سوريا ولبنان ، فكل من الحكومتين السورية واللبنانية بذلت اهتماماً كبيراً في صيانة التراث التاريخي والفني لبلادها واستثماره ، وأرصدت كل سنة في ميزانيتها الاعتمادات اللازمة لترميم الإبنية القديمة . وبفضل هذه الاموال استُطيع القيام بهذا العمل الترميمي سنة بعد سنة .

ودلّ هذا البيان أيضاً على الجهد الذي بذلته الدولتان في انشاء متاحف جديرة بالكنوز التي ستضمها . فقد بنت الدولة السورية المتحف الوطني السوري الجميل الذي يقوم اليوم على مدخل دمشق ، واعادت فيه انشاء كنيس دورا اوروبس الخطير ، وضريح برحاي التدمري ، وواجهة قصر الحير الاموي . وتتولى على عهدتها ايضاً متحف حلب . وفي جبل الدروز وبلاد العلويين أمّنت الاموال الدرزية والعلوية اولاً ثم السورية على ترميم الابنية وتنظيم المتاحف الاثرية المحلية .

وبفضل الاهتمام المتواصل الذي ابدته السلطات اللبنانية لمخلّفات الماضي أجريت بنجاح حفريات جبيل الكبرى ، وستُجرى كذلك حفريات صيدا . فمن العام ١٩٢٨ الى يومنا هذا والاعتمادات لهذه الاشغال متواصلة دون انقطاع . فالحكومة اللبنانية تتولى على عهدتها منذ العام ١٩٢٧ ادارة المتحف اللبناني ، وكالدولة السورية يؤمّن لبنان بنفسه على صيانة آثاره التاريخية ، فترميم آثار بعلبك الذي استمر من العام ١٩٣٠ الى ١٩٣٥ كان عملاً جبّاراً أنفق عليه من الاعتمادات اللبنانية وحدها .

هذا الى ان نواة الادارة العلمية والعملية في هذا النشاط الحديث ببلاد الشرق قد نمت بسرعة ، وهي قادرة اليوم على ان تحلّ محلّ مصلحة الآثار للمندوبية العامة . ففي بيروت ودمشق تنشأ اليوم مصالح محلية للاثار تبشر طلائع تنظيمها بمستقبل جميل ، وهذه المصالح ستُمهَر بجهاز غني بالاموال والرجال .

فقد أدرجت سوريا في برنامجها اعمالا ترميمية في دمشق وتدمر وحلب . ففي حلب تنوي الحكومة انشاء متحف جديد ، فالمتحف الحالي لا يصلح لهذا الغرض لانه لم يبنَ لاجله . وفي الرقة ، مدينة العباسيين الخطيرة ، ستجري حفريات في هذه السنة نفسها .

وليس جهد لبنان دون جهد سوريا . فحفريات صيدا ستكون على جانب عظيم من الاهمية سواء من ناحية الاشغال نفسها او من ناحية شراء الاراضي اللازمة لحفريات بهذا المقدار من الاتساع . هذا الى ان اعمال الترميم ستجري على مدى واسع النطاق ، وستشمل ، على الخصوص ، مساكن اشراف لبنان القديم . وقد أرصدت اموال ضخمة لترميم قصر بيت الدين في هذه السنة نفسها واظهار الدور التاريخية في دير القمر .

وبديهي ان وثبة كهذه توحي الثقة بمستقبل الاعمال الاثرية في الشرق . وليس الامر مع هاتين الجمهوريتين الفتيتين بمقتصر على جهد عارض بل هو عمل مستمر دائم عزمتا على القيام به لصيانة الكنوز التاريخية التي خلّفها لهما الماضي . ومهما يكن الجهد عظيما فهو لن يعدو حدود ما تستطيعان .

٤٤
٢٤١٤٢١

انتهى طبع هذا الكتاب على

مطبعة الكشاف ببيروت

في ١٠ كانون الثاني ١٩٤٤

m 220131

18 AUG 1988

من

منشورات دار المكشوف

كان ما كان	ميخائيل نعيمه
الباب المرصود	عمر فاخوري
الفصول الاربعة	عمر فاخوري
افاعي الفردوس	الياس ابو شبكة
نحن في افريقية	كامل مروّه
النداء البعيد	احمد مكي
الرغيف	توفيق عواد
الوعي القومي	قسطنطين زريق
معالم الوعي القومي	رئيف خوري
البرلمان الامثل	رشدي معلوف
مواعيد	صلاح لبكي
خواطر ساذج	خليل تقي الدين
الاعدام	〃 〃 〃
نداء المجهول	محمود تيمور

تحت الطبع :

في قصور الخلفاء	صلاح الدين المنجد
ساعات مع ادباء الغرب	صلاح الدين المنجد
معارك العرب في الشرق والغرب	بطرس البستاني
الشعراء الفرسان	بطرس البستاني
نداء القلب (شعر)	الياس ابو شبكه
الرحالة العرب في القرون الوسطى	قدري قلعجي
ينبوع الفن (مسرحية)	خليل تقي الدين

مطبعة الكشاف - بيروت

DS
94.5
R64x
1943